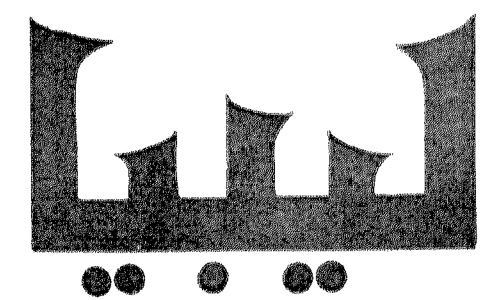
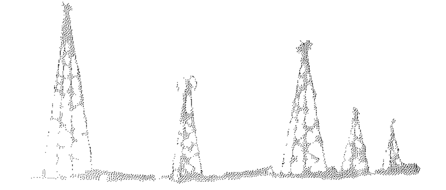
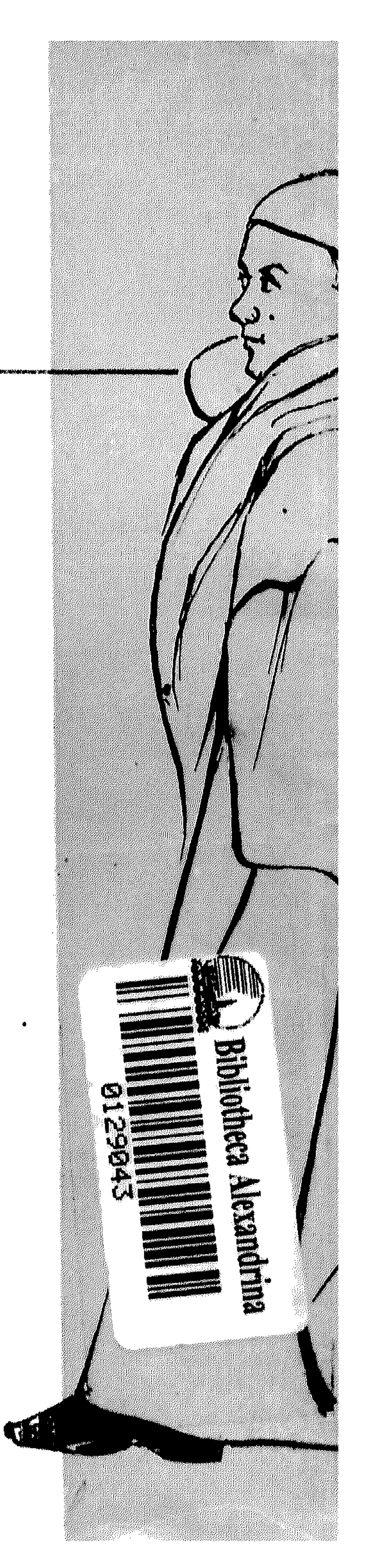
الشارع الطويل

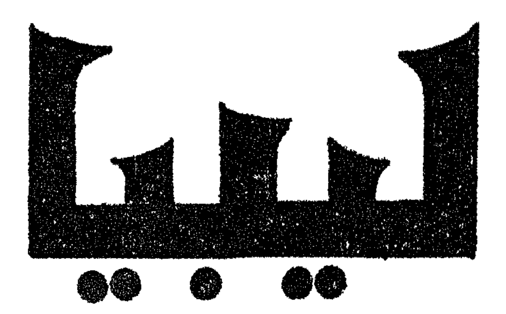


عبد الله إمام



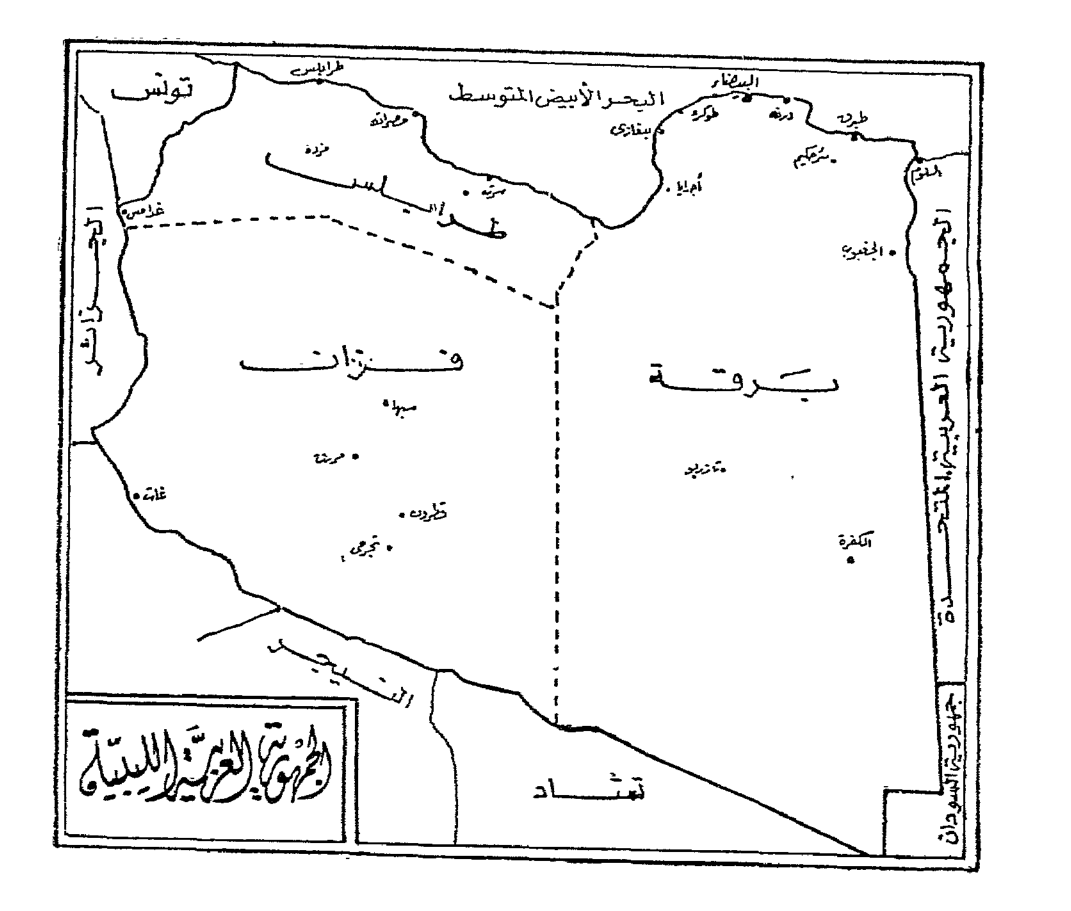


الشارع الطويل



عبد الله إمام

الى الانسان العربى فى ليبيا ..
صـــانع الثـــورة



الجمهورية العربية الليبية
البحر الأبيض المتوسط
تونس
طرابلس
فزان
برقة
تشاد
النيجر
الجزائر
الجمهورية العربية المتحدة
جمهورية السودان
طرابلس
مصراتة
مزدة
سرته
غدامس
البيضاء
طوكرة
درنة
طبرق
بنغازي
أم ابلا
بئر حكيم
السلوم
الجغبوب
سبهاء
مرزق
غات
قطرون
تجرهي
الكفرة

قصة الشاع

هـذه محاولة تحقيق صحفى كبير عن دولة واحدة ..

المناخ ، والجو الذى كتبت ، ونشرت فيـه مختلف عن الآن .. كان ذلك منذ سـنوات .. عندما قمت برحلة صحفية الى ليبيا .. بالطريق البرى لأعيش فى كل قرية .. وكل مدينة ، أكبر وقت ممكن ، ولكن هذا التحقيق الصحفى يبقى فيه أجزاء كثيرة يمكن أن تعيش لتعكس الواقع الاقتصادى ، والسياسى ، والاجتماعى لأحدث جمهورية تدخل الصف العربى المتحرر .

كان الهدف من وراء اجراء هذا التحقيق الصحفى أن ينمو العمل بحيث يشمل دول المغرب العربى كله .. ولذلك اخترت لها عند النشر اسم « الشارع الطويل » .. الشارع الذى تسير فيه من الاسكندرية ، فتصل الى ميناء طنجة ..

شارع واحد .. على هذا الشارع عدة دول عربية تبدأ بليبيا ، وتنتهى بالمغرب .

ولقد قطعت فى هذا التحقيق الخطوة الأولى من المشروع ..

وكان يمكن أن يصدر كتاب منذ فترة ، مستفيدا بالضجة التى أحدثها عند النشر ، وخاصة فى ليبيا ذاتها ، ولكننى آثرت الانتظار حتى اتم المشروع الذى بدأته .. الى ان فرضت الاحداث الأخيرة فى ليبيا ضرورة أن أضع ــ بسرعة ــ أمام المواطن العربى صورة للحياة داخل هذا البلد الشقيق .

ولقد ركزت على الجانب الاجتماعى من الحياة .. ذلك أن كل « سلوك » اجتماعى هو انعكاس مباشر لأوضاع اقتصادية أو سياسية أو ثقافية معينة ..

واذا كانت أجزاء هذا الكتاب قد نشرت منذ سنوات فقد

حاولت أن أعيد صياغة بعضها ، وأضيف عليه اضافات سريعة لتقريب الواقع الذى كانت تعيشه جمهورية ليبيا العربية قبل الثورة مباشرة ..

ليس خافيا على أحد أن القوى الوطنية فى ليبيـــا ، كانت مضروبة ومضطهدة .. وأنه حتى صـــورة الديمقراطية الغربيـــة الزائفة المتمثلة فى أحزاب تتطاحن للوصول الى الحكم ، هذه الصورة كانت ممنوعة فى ليبيا .. وكان الحديث فى السياسة ، وحول التقدم محاطا بأسياج شائكة ، تحاول عزل المواطن الليبى عن التيارات والأفكار الجديدة التى بدأت تغزو العالم ..

وكانت قبضة البوليس قوية ، ونفوذه متزايد ..

ولكن ذلك لم يمنع المواطن الليبى من أن يخرج فى مظاهرات وان يطالب بالغاء القواعد ، وأن يقف فى وجه ما يراه خطأ و يطالب بتصحيحه ، ولم يمنعه ذلك أخيرا من أن يثور ويغير نظام الحكم ويعيد صياغة الحياة على أرض وطنه .

لم تمنع كل الأساليب المواطن الليبى من أن يظل عربيا ينفعل بأحداث الوطن العربى ، ويحاول الاسهام فيها ، رغم الاعتقالات .. رغم السجون .. فقد كان موقفه يعبر عنه دائما ، ولعل سورة

مظاهرة المرأة فى طرابلس ، وهى تطالب بعمـــل جاد مع الدول العربية من أجل فلسطين لاتبارح ذهنى ..

ولعل اعتقال ، وسجن عدد من المثقفين والنقابيين والعمال فى نفس الوقت ، ولنفس السبب لا تغيب عن ذهن احد ..

* * *

ليبيا هى أقرب الدول العربية الى الجمهورية العربية المتحدة..

وهى الدولة العربية الوحيدة التى ترتبط بها بطريق برى ..

وفى القاهرة مئات وآلاف من الليبيين يتعلمون .. ويعملون ..

وفى ليبيا مئات وآلاف من ابنائنا يعملون ، وينتجون .. فى جميع المرافق ..

والصلة بيننا وبين ليبيا لم تنقطع عبر العصور الطويلة ، فلم تستطع القوى العاتية للاستعمار ، وأذنابه ، وعملائه أن تفرق بين الأخ المصرى ، وأخيه الليبى .. لم تستطع هذه القوى أن تقضى على صلة الدم والقرابة بين الذين يعيشون داخل ليبيا يحملون الجنسية الليبية ، والذين يعيشون بجانب حدودها يحملون جنسية الجمهورية العربية المتحدة ، بل ان هذه الصلات القوية فرضت وجود اتفاقيات أثناء الحكم الايطالى لليبيا تسمح لبعض القبائل أن تنتقل بين البلدين دون جوازات سفر ، أو هويات للمرور ..

والذى يخرج من الاسكندرية متجها الى ليبيا يحس بعد لحظات أنه قد وصل الى الجزء الآخر من الوطن العربى .. يحس أن الناس بعد الاسكندرية وفى الصحراء هم الناس ، العادات هى العادات ، الطباع هى نفس الطباع ..

الذين سيراهم على طول الطريق . هم نفس الناس - القبائل تحمل نفس الأسماء ، بقايا الحرب هى نفسها .. مقابر الحلفاء ، والألمان فى العلمين هى امتداد لمقابر اخرى تحمل الأسماء ذاتها .. فى مدينة طبرق .. كهف روميل فى مرسى مطروح شبيه بكهف روميل فى الجبل الأخضر .. وهكذا .

ليس فقط انا وليبيا نتكلم لغة واحدة ، ونملك التاريخ المشترك ، وتربطنا وحدة المصير والنضال ، والهدف ... بل انه تربطنا أيضا وحدة الدم .. والقرابة ..

وكان هذا دائما هو احساس المواطن الليبى .. حتى الذى يعيش بعيدا .. بعيدا .. على حدود الصحراء الكبرى ..

وكان هذا دائما احساس المواطن المصرى .. حتى الذى يعيش فى أعماق الصعيد .

* * *

اذا كانت ثورة ليبيا بالنسبه للمواطن العربى شعاع ضوء فى

الظلام الذى خيم على الوطن العربى ، فى وقت من أشد أوقات الأزمة والمحنة . ويعطى الأمــل . ويبعث على الثقــة والتفاؤل فانهــا حيـــاة مختلفــة جـــديدة للمواطن الذى يعيش داخل بلده مسلوب الحرية الاجتماعية ، فلا يتمتع بفتات الثروة ، فى وقت أصبحت فيه ليبيا رابع دولة فى العـــالم تنتج البترول وتعـــداد سكانها حوالى مليـــون ونصف مليون .. وتملك فيه ٢٠ مليار برميـــل يمثـــل ٥ر٥ ٪ من الاحتيـــاطى العـــالمى من البترول ..

كل هذه الثروة تتبدد ..

الجزء الأكبر منها يدخل جيوب البعض .. وما يذهب الى العاملين ثمن عرقهم ، يذهب أيضا الى جيوب هذا البعض الذى يحتكر الاستيراد .. وكل شىء فى ليبيا مستورد .. ومر من بين أيدى هؤلاء ..

* * *

كنا نسمع كل يوم عن انفجار بئر بترول جديد فى ليبيا .. وكان كل ما يتوقعه الناس أن يسمعوا عن انفجـارات جـديدة لآبار البترول .

ولم يكن أحـــد يصدق أن ثورة يمكن أن تنفجر بهـــذه السرعة ..

ولكن المواطن العربى أثبت دائما فى كل الظروف، أنه يملك طاقات خلاقة ، ولا بد انه ينتزع حريته وحقه فى ان يعيش ..

وأنه ليست هناك قوة يمكن أن تحجب شمس الحرية والتحرر ... او تمنع تيار الحياة بالنسبة للشعب العربى .. تيار القومية العربية ..

* * *

وأخيرا ..

فهذه محاولتى فى أن أقوم بتحقيق صحفى داخل ليبيا ..

أرجو أن يجد فيها القارىء العربى ما يمكن أن يفسر له .. الاجابة على السؤال الكبير ...

لماذا الثورة فى ليبيا .. الدولة الغنية بآبار البترول ..

عبد الله امام



شارع واحد طويل ..

تسير شبه من الاسكندرية ، قد تتجه ناحية الغرب ... فتجد نفسك داخل ليبيا .. اول ما يصافح عينيك جبل مغطى باللون الأخضر ..

فى الجبـــل مزارع تبحث عن مزارعين .. وفيه مدينة انفقت عليها الملايين ببذخ .. وفيه قواعد .. ومطارات لانجلترا .. وفيه شـعب يعيش على الهامش .. انتظارا ليوم تشرق فيه شمس جديدة .

كان السائق الليبى يغنى « حسونة .. أنا زيك غاوية » ..
والركاب الستة يمضغون الحديث حول أسعار الخضار المرتفعه ، وأنابيب المياه الجديدة التى تمتد حتى مدينة طبرق . !

وكنت أجلس صامتا ..

الركاب الستة يعرفون بعضهم جيدا ، ويبدو أنهم أصدقاء فقد ركبوا سويا السيارة من الاسكندرية منذ ١٢ ساعة تقريبا .!

وأنا .. لم يمض على ركوبى معهم من مدينة السلوم سوى لحظات ..

وجلست صامتا .. لا أستطيع أن أرقب الطريق الصحراوى فى الظلام .. ولا أستطيع أن أشتبك معهم فى الحديث ..

ومرات عديدة حاولت فيها أن أشد جارى الى الحديث معى ولكنه كان يجيب باقتضاب على كل سؤال أوجه اليه .. والحقيقة أن أسألتى كانت ساذجة وجاهلة ..

وكنت أسأله

ـ فاضل كام كيلو على طبرق !

ـ حوالى ساعتين ..

وأصمت قليلا .. ثم أعود أسأل :

ـ احنا هنبات فى طبرق ..

ويجيب :

ـ ان شاء الله ..

وتكررت أسألتى الجاهلة الساذجة ، وتكررت اجابات جارى المقتضبة .. حتى ايقنت أنه ليس من السهل اخراج أحد هؤلاء الأصدقاء الستة من مناقشتهم ..

وسكت .. ولم يكن أمامى الا أن أفكر فى الأيام الثلاثة التى قضيتها فى الصحراء الغربية ..

لقد رأيت خلالها العلمين .. وزرت مقابرها ..

ورأيت مرسى مطروح .. ودخلت كهف رومل ..

ورأيت السلوم .. وأمضيت ليلة فى فندقها الريفى الوحيد ..

ورأيت الصحراء .. وبذور الموت ما زالت مدفونة فيها تتربص بالانسان ..

وفى كل بلد كانت تقابلنى حكايات كالأساطير ..

وعلى لسان كل بدوى كانت تتردد قصة الحرب العالمية الأخيرة ..

لقد عاشوها .. وشاركوا فيها .. بل ان عددا منهم ما زال حتى الآن يردد أحداثها كأنها وقعت بالأمس القريب ..

ملايين الألغام ما زالت مدفونة داخل الرمال الصفراءالناعمة ..

وعلى طول الطريق بين الاسكندرية والسلوم .. وحتى حدود ليبيا ،أشياء كثيرة تقول لك ان الحرب التى كانت هنا قد انتهت أمس .. أو أمس الأول ..

بقايا الدبابات كما هى ، هياكل السيارات علاها الصدأ ، خزانات المياه التى أصابتها القنابل ما زالت صريعة على الأرض ..

وصعدنا جبل السلوم .. لننطلق فى الطريق الى ليبيا .

كيلو مترات بسيطة ثم بوابة الحدود .

جنديان مصريان فقط .. رأى أحدهما « جواز سفرى » ثم انطلقت السيارة ..

نفس الطريق .. نفس الشارع .. نفس الرمال .. نفس أدوات الرصف .. لاشىء تغير .. وأصبحنا فى ليبيا .. فى مدينة «كانتوزو» ... مدينة صغيرة ، فيها فندق وفيها تجار يهربون من على الحدود البضائع ، كما يحدث فى كل مدن الحدود بالعالم .

والاجراءات فى ليبيا معقدة ، وليست معقدة ، لأنها تخضع لأمور لا يملك موظف الجمارك أو الجوازات ازاءها أى تفسير ..

ولكننى استطعت أن أ فسرها ،على ضوء ترددى عشرات المرات على السفارة الليبية بالقاهرة لأحصل على تأشيرة دخول .. وعلى

ضوء البرقيات التى أرسلتها أطلب فيها الموافقة على أن أزور ليبيا وكلها حفظت .. حتى جاء معرض طرابلس الدولى .. وكانت فرصة أن « أدعى » اننى أريد زيارة للمعرض ..

كانت هذه الخواطر تدور فى ذهنى ،وأنا انتظر ما يمكن أن القاه من معاملة هناك ..

وخيل الى لحظات أن رفاق السيارة لا يريدون « الاختلاط » بى فى بلادهم ، وخاصة بعد أن عرفوا اننى صحفى ، وأننى ذاهب لأرى ، وأسمع ، وأتأمل .. ثم أكتب ..

عنـدما نزلت من السيارة فى مدينة طبرق ، أحسست أن السائق ومعه الركاب قد أزاحوا عبئا عن صدورهم ..

تركونى على باب أحد فنادق الدرجة الثالثة .. فقد كان الليل حالك السواد .. والرياح تعصف .. وكانوا يريدون الفرار بجلدهم منى ومن البرد ..

وقلت للسائق :

ـ لا يمكن أن أنام على هذه الدكك ..

قال بامتعاض :

ـ الى فندق آخر ..

وصحبنى الى فندق درجة أولى ، أيقظنا صاحبه الأجنبى ..
وصعدت الى الغرفة اتمدد على الفراش .. وأروح فى اغفائة قصيرة
استيقظ بعدها فى الصباح لمواصلة الرحلة .

فى طريقى للبحث عن سيارة لفت نظرى وجـود عدد من
الكباريهات وبعض المحلات النظيفة . ولافتات باللغه الانجليزية ،
ومقابر لضحايا الحرب العالمية الأخيرة ..

وأمام موقف التاكسيات ، قلت :

ــ اريد أن أذهب لبنغازى ..

ــ بعد ساعة ستقوم سيارة الى درنة ، ويمكن من هناك أن
تجد عشرات السيارات لبنغازى ..

وقال شاب كان يقف ينتظر السيارة :

ــ الأخ مصرى .

ــ نعم ..

ــ يبحث عن عمل ..

ــ بالضبط ..

ــ لأول مرة هنا ..

ــ نعم ..

ــ أنا كنت طالبا بكلية الحقوق بالقاهرة .

قريبا ، ولكن البوليس هو الذى يحميها .. طبعا من المواطنين
وتصافحنا .. وقلت له : اننى ذاهب الى الفندق لاحضار أمتعتى ..

وعرض على أن نسير معا ، وفى الطريق كنا قد تعارفنا .. ورحب بى ترحيبا انسانى ما لقيته من جفوة طوال رحلة السيارة.

***

كان الحديث حول القاعدة البريطانية فى مدينة طبرق التى نسير فيها ..

بريطانيا وقعت معاهدة مع ليبيا فى ٢٩ يوليو ٥٣ تسمح بالوجود العسكرى البريطانى فى ليبيا لمدة ٢٠ سنة !

لبريطانيا قاعدة بحرية هنا فى طبرق ..

ولها مطار فى هذه المنطقة اسمه مطار « العدم » ..

وقال الشاب الليبى :

ـ أنتم تسمونه فى صحفكم دائما مطار « العظم » .. ولكن الاسم غير صحيح.. هو فى منطقة مجدبة تماما ، بعيدا عن العمران عديمة الأشجار .. لذلك سمى مطار « العدم » ..

بريطانيا تدعم دائما قواتها فى منطقة برقة ..

القوات تنقلها من قبرص الى مطارها .. ومع ذلك فهى تعلن أنها ستجلو ومع كل أزمة بتكرر هذا الاعلان .. ولكنها تنفق فى نفس الوقت الملايين من الجنيهات لتدعيم وجودها العسكرى ..

قلت : والناس هنا .. ما هو رأيهم ؟

ــ من تقصد .. الحكومة تعرف طبعا أن بريطانيا تدعم موقفها أما الشعب .. فأظن أن موقف الشعوب من الاستعمار واحد لايتغير .. ياأخى ..

ليس عندنا أحزاب .. ضربت كل أشكال الديمقراطية فيما عدا البرلمان ! ولكن عندنا هنا اتجاهات .. شباب وشيوخ وطنيون ، مخلصون .. اشتراكيون .. ولكن ينقصهم أن يجمعهم التنظيم ..

وقلت : هل لبريطانيا مصالح أخرى فى الولاية الثانية ... طرابلس ..

قال : مصالح اقتصادية نعم .. سوق .. وشركات .. أما عسكرية ففى ولاية طرابلس شكل أخر للمؤسسات العسكرية . شكل أمريكى ..

قلت : وفى ولاية فزان ..

قال : لا أعرف الموقف بعد البترول .. ولكن الآن هناك قنصل فرنساوى فى فزان .. وليس فى الولاية فرنسى واحد يمكن أن يرعى هذا القنصل مصالحه ..

* * *

السيارة ترتفع بنا وسط طريق صحرى لتصل الى قمة الجبل

المرتفعة ٦٨٠ مترا ، وبعدها يبدأ الطريق عاديا تحيط به الغابات من الجانبين .

وزميلى يسألنى :

ـــ كيف أمسيت .

وقلت له : هذا الرجل الذى قال لنا أننا سنجد سيارات فى درنة ضحك علينا .. فقد اضطررنا أن نمضى الليلة فيها وأردفت:

ــ على العموم .. فدرنة مدينة جميلة من الداخل .. ولكن أطرافها الصفيح والعشش شىء مفزع ، ومقزز حقا ..

وقال : يسمونها درة الوادى ..

وقلت له : لقد رأيت منظرا لن أنساه .. نهر كامل ، عليه سدود ، وقناطر .. وعلى شاطئه طرقات ، وليس فيه قطرة ماء واحدة .

ورد : هذا مجرى السيل .. أحيانا تتجمع مياه الأمطار بالجبل وتهدر كالشلال متخذة هذا المجرى . ومنذ عامين دمر السيل المدينة كلها .

ومضت دقائق صامتة .. لا يقطعها سوى موتور السيارة ، وفجأة كدت أقفز من مكانى :

الطريق يرتفع فى خطورة شديدة ، شبيهة بتلك المرتفعات التى

تحيط بمدينة عمان ، والتى تصعدها ، وكأنك تصعد الى السماء فى طريق ملتو .. مفروش بالأعمال السيئه ! .

وقال جارى بهدوء :

ــ هذا هو ... الجبل الأخضر ..

أشجار من الصنوبر ، والخروب ، والبكوم ... أشجار اكليل وزعتر ، وشيح وأرز .. وأشجار كثيرة تكون غابة كثيفة تبدو أحيانا كأحراش جنوب أفريقيا التى نراها على شاشة السينما وأحيانا أخرى تترك المكان للأعشاب والحشائش التى تنبت بكثرة ..

ان مساحة شاسعة من الجبل الذى تمتد ٣٠٠ كيلو وعرضه مائة كيلو صالحة للزراعة . ولكنها لاتجد من يزرعها .. لأن المزارعين على قلتهم هاجروا .. وتركوا العمل فى الزراعة وذهبوا ليعملوا فى البترول ، وقد ساعدت موجة الجفاف على حركة الهجرة الداخلية ، فالأمطار لم تسقط منذ سنوات ..

الجبل كله أخضر .. انه أكبر وأوسع مساحة خضراء فى ليبيا وبالرغم من أن نقطة ماء واحدة لم تهطل منذ مدة الا أنه يظل أخضر . ويتحول فى الربيع .. الى حديقة غناء مليئة بالزهور .. وتفوح منها رائحة حلوة لها رائحة كل أشجار الدنيا ...

***

قرية شحات .. قرية أثرية فى الطريق .. يمكن أن نمضى فيها بعض الوقت لنستريح من الطريق ..

فى فندق الجبل الأخضر ، سألنى عم محمد الجرسون عن أخبار تعويضات أهالى النوبة .. فهو من منطقة الكنوز وكان يعمل فى أحد فنادق عمان ، ولكنه طرد عقب مقتل هزاع المجالى وجاء الى ليبيا .. يقول لى عم محمد :

ــ الجو هنا أحسن من سويسرا .. منذ أيام كانت الثلوج تغطى الجبل كله .

الأجانب كلهم جاءوا ليستمتعوا بمنطقة شحات وآثارها ..

ودعانى مدير الفندق لزيارة منطقة الآثار .

المدير انجليزى .. والوكيل ليبى .

سار معى الوكيل فى المعابد .. معبد أبوللو .. معبد زيوس .. الحمامات الرومانية .. والمسرح .. ومناطق أثرية كبيرة لا تحتاج الى عناء للتنقيب عنها .. ولكن عمليات التنقيب متوقفة ..

وتذكرت قرية « القرنة » فى الأقصر عندنا والقصة التى دارت حولها يوم أرادت الحكومة أن تنقل السكان الى مدينة أخرى .. وأقامتها بالفعل . ولكنهم رفضوا ، وظلوا يقيمون فى الكهوف ، والمقابر داخل الآثار وكل منهم يعتقد أنه يقيم فوق كنز !!

نفس القصة تتكرر فى هذه القرية ..

فألف مواطن ليبى يقيمون فى المقابر والكهوف ، ويرفضون أن يتركوها ..

مساكن جديدة تقام لهم على شاطىء البحر . ولكنهم لا يريدون ترك الاقامة فى المقابر !

وشحات ليست مدينة .. وليست قرية ..

انها فقط فندق بين الآثار .. يحتضن الجبل والبحر ..

ومقابر يقيم فيها الناس .. ومستشفى حديث أطباؤه من يوغوسلافيا .. يعيشون فى عزلة تماما !

* * *

المسافات بين القرى متباعدة .

وقد تسير مائة كيلو قبل أن تلمح عيناك عدة بيوت لا تزيد على عشرة تكون احدى القرى ..

الحياة لا تحسها وأنت تسير الا فى الأشجار . وأعمدة التليفون والسيارات التى تجرى فى نهم فوق الشارع الطويل تحاول ابتلاعه .

ان أكثر ما يحتاجه الجبل الأخضر هو السكان ..

ليبيا مساحتها مليون و ٧٦٠ الف كيلو متر مربع ٨٥ ٪ من المساحة بلا سكان .. مساحتها أكثر من ضعف مساحة الجمهورية العربية ، وعدد سكانها مليون ونصف مليون .. كلهم من العرب ..

تحتاج ليبيا أولا الأيدى التى تعمل فى الزراعة .

ايطاليا احتلت ليبيا سنة ١٩١١ ولم تستقل الا فى ٢٤ ديسمبر عام ١٩٥١ وقامت أثناء الاحتلال بمذابح جماعية تهدف الى ابادة الليبيين .. وهذا هو أحد أسباب نقص عدد السكان .

ولقد شهد الجبل الأخضر بالذات صورا رائعة للمقاومة . ان كل كهف من هذه الكهوف يحكى قصة مقاومة الشعب الليبى .. كهف عمر المختار .. كهف جيش التحرير .. كلها شهدت حروبا قاسية .

وكان الايطاليون يعدون الجبل الأخضر ليكون منطقة ايطالية .

القرى بنيت على الطريقة الايطالية .. اللافتات ايطالية .. فى وسط القرية أقيمت الكنيسة ..

الطريق الذى نسير فيه نحتته قوى جبارة وسط الصخور وتكلف فى الرخاء خمسة ملايين جنيه استرلينى . لماذا ؟ لأن ايطاليا كانت تستعد لتهجير عشرة ملايين ايطالى الى الجبل يزرعون وينعمون بالحياة فيه .

والحرب التى دارت فى الجبل كانت كفيلة بأن تقضى حتى على الزرع الأخضر .. لقد استمرت ٢٢ عاما من سنة ١١ حتى سنة ٣٣ ، ثم كان مسرحا لجيوش المحور والانجليز ٤ مرات خلال الحرب العالمية الأخيرة .. ومع ذلك بقى الجبل الأخضر .. أخضر .

* * *

السائق عرف أننى صحفى . وبدأ يتآلف معى .

يشير الى مدينة حديثة البناء ، ويقول هذه هى « البيضاء » . عمليات البناء تجرى داخل هذه المنطقة الجرداء .. لخلق عاصمة حديثـــة ..

البيضاء هى مقر أول « زاوية » سنوسية فى ليبيا ، وكانت مطلية بالجير الأبيض وسط الصحراء ، لذلك سميت البيضاء ، ولم يكن فيها منذ سنوات الا هذه الزاوية ، وبعض البيوت المحيطة بها . .

والآن تتحول الى مدينة ..

ويقول السائق :

ــ حرام كل هذه الملايين .. انها عاصمة غير مناسبة فهى فى طرف البلاد .. وصناعة مدينة كاملة تتكلف ملايين الملايين تلقى فى الرمال .

ويقول الشاب المثقف بخبث :

ــ لكن هذه الأموال بعضها معونة !

ويرد السائق بلا خوف :

ــ معونة .. المعونات وأموال البترول هنا للطرق ، ولبنـــاء مطارات وعمارات فى أماكن لا تفيد .. ليتها معونة تفيد .. وعمليات البناء والانشاءات بسيطة لأن هناك فئة تشرنق حول القصر الملكى

تحول هذه الانشاءات الى ملايين من الجنيهات وتسعى أيضـا لتحـويل كل امكانيات الدولة ، لاقامة مشروعات يمكن أن يستفيدوا منها دائما ..

والسائق الليبى يبدو أنه أخذ الأمان . ومضى يتحدث بصراحة :

ــ القصر الملكى لا يحكم .. الذين يحكمون هم من حوله .. وهم غالبا المستفيدون من هذه العمليات الانشائية كلها .

كنت تقول ان درنة حولها بيوت من الصفيح .. هذا صحيح ، ولكن من المسئول عن ذلك ..

قلت : واقع الظروف التى يعيش فيها المجتمع الليبى .

وقال جارى الذى تعلم فى القاهرة :

ــ المجتمع الليبى فى قاعة الشعب الذى يسكن هذه العشش .

وبعد ذلك تأتى فئة الموظفين والعمال المطحونين فى العمل ، ثم التجار ، والأجانب ، والسماسرة ، وهـم الذين ينتفعون بكل شيء .. هم فى الواقع الذين يحكمون لأن بيدهم كل الاقتصاد ، ومصالحهم متشابكة ، ومترابطة وليس هناك أمل فى القضاء على هذه المصالح الا اذا تغيرت كل الظروف والأوضاع .

وقلت : وهل يمكن ؟

قال : ان أقوى شيء هنا هو البوليس ، وفـرق الأمن .. انها أقوى من الجيش .. الجيش لا يحمى البلاد وقد يكون ذلك

فى الداخل .

هل تتصـــور أن البوليس عنـــدنا يملك قوة من الدبابات لا يملكها الجيش ..

هل تتصور أن ليبيا تريد أن تقيم قواعد للدفاع الجوى .. لماذا .. لا أعرف .. لماذا لا تقيم قواعد للهجوم الجوى مثلا اذا كان لا بد من تدريب عسكرى ، فليكن على الهجوم لا على الدفاع.

من الذى يمكن أن يهاجم ليبيا جويا .

ليس هذا هو المشروع الوحيد الذى يتحدث عنه الناس .. الناس هنا يتحدثون عن أشياء أخرى ، كلها تعكس نفوذ الأمن الذى يحمى النظام .. حماية بواسطة « استخبارات » على النظام الأمريكى الدقيق .. وسوف تلمس ذلك بنفسك عند ما تدخل أعماق البلاد .. وتتصل بالناس .. فاحترس دائما فالعيون عليك .

وقلت أحاول تغيير مجرى الحديث الذى انفتح فجأة مع أشخاص لا أعرفهم تماما ولا يعرفوننى تماما : كنا نتكلم عن البيضاء العاصمة الجديدة .

وقال السائق :

ــ كانت ليبيا لها عاصمتان .. قبل بناء البيضاء .. طرابلس ،

وبنغازى ، بعد مدينة البيضاء أصبحت هى العاصمة الادارية ، وفيها قصر اليمن للملك ..

والمفروض أن تنتقل الحكومة ، وكل مصالحها الرئيسية الى هذه المنطقة فى طرف البلاد ..

وليبيا تتكون من ٣ ولايات (١) .

برقة . عاصمتها بنغازى ، وطرابلس وعاصمتها طرابلس . . وفزان ، وعاصمتها فزان ..

ولكل ولاية وال . ومجلس تنفيذى . وآخر تشريعى الى جانب مجلس للنواب للبلاد . وآخر للشيوخ .

والمسافات بين الولايات متباعدة جدا . بين طرابلس وبرقة ألف ومائة كيلو متر ، وبين طرابلس وفزان ألف كيلو متر أخرى..

* * *

جارى يشير الى اعرابية تقود محراثا يجره حصان وكأنه يقول :

— من يدرى لعل زوجها ذهب الى البترول ، وتركها تعمل فى الأرض ..

---

(١) فى ابريل سنة ١٩٦٣ ألغى نظام الحكم الفيدرالى وتوحدت الولايات الثلاثة تحت اسم المملكة الليبية المتحدة ، وقسمت الى عشر محافظات يحكم كل منها محافظ . ويتكون برلمان ليبيا من مجلسين / مجلس الشيوخ وعدد أعضائه ٤٨ عضوا ينتخبون لمدة ٨ سنوات ومجلس النواب المكون من ٩١ نائبا .

وآخرى بدوية تسير وراء قطيع من الشاه ..

وتصادفنا أكثر من سيارة تحمل جنودا انجليز ذاهبين الى مطار العدم بجوار طبرق ..

ويقول السائق :

ـــ نحن فى طريقنا الى « طلميثه » .

منطقة أثرية أخرى .. ويهز رأسه وهو يشير الى عدة أحجار متجاورة ويهمس : هذه قبور الأشقاء السبعة ..

سبعة أشقاء غدر بهم الايطاليون وقتلوهم ، ودفنوا هكذا . فى نفس المكان ..

ونلمح اعرابيا يركب حمارا . وتسير خلفه زوجته : ان المرأة خلف الرجل فى كل من بلادنا العربية ..

وبالرغم من أن الاختلاط لا يكون مشكلة فى البادية الا أنَ المرأة ليس لها حرية اختيار زوجها .. انها تباع بمهر من الحيوانات .. البقر .. الغنم .. الجمال .. تماما كما يحدث فى صحرائنا الغربية .

والمرأة تسير فى البادية سافرة حتى اذا ما نزلت الى المدينة أو القرية غطت جسمها كله بعباءة مخططة يسمونها « الجرد » حتى تبدو وكأنها خيمة متنقلة .

وتعدد الزوجات شيء عادى فى البادية ، يساعد عليه أن نسبة الأناث أكثر من الذكور . وكأن الطبيعة تساعد على انتشار التعدد ، ففى متصرفية ـ محافظة ـ درنة مثلا نجد أن عدد الذكور ١٩ ألف وعدد الأناث ٢٠ ألف ، ونفس النسبة تقريبا فى المرج ، ولا تشذ عن هذه القاعدة الا البيضاء ، فعدد الذكور ١٩ ألف وعدد الأناث ١٧ ألف . والسبب هو أنها تحولت الى مفر للعمل .. للرجال . !

والأرقام تقول ان ٥١٫٥ ٪ من سكان الجبل الأخضر غير مستقرين .. انهم شبه رحل ، فمتصرفية المرج مثلا لا يسكنها الا شبه رحل ، وسكان درنة ، فيما عدا الذين يسكنون فى المدينة كلهم رحل ..

* * *

قلت لجارى ..

ــ من الذى يملك الأرض الزراعية فى هذا الجبل ؟

وشد الرجل نفسا عميقا من سيجارته الأمريكية قبل أن يقول :

ــ الملكية الزراعية فى الجبل قبلية .. كل قبيلة تملك مساحة من الأرض ، هكذا فى معظم أنحاء ليبيا ..

والحكومة تملك مساحة أخرى اشترتها من الايطاليين حسب قانون صدر بعدم تملك الأجانب .

والنظام القبلى بدأ يتفكك .. حتى المجلس التنفيذى الذى يحكم الولايات كان يختار على أساس قبلى .. ولكن الاتجاه بدأ أخيرا الى وضع عوامل أخرى للاختيار ..

ومشكلة الملكية الزراعية لا بد أنها ستثور يوما بعد أن ضعف النظام القبلى .. ولا بد أن اجراءات سوف تتخذ لاعادة صياغة الملكية على أساس فردى ..

ولكن المشكلة ليست حادة فالأرض الزراعية كثيرة لا تجد من يزرعها لأنها أكثر من عدد السكان ..

* * *

نصل الى منطقة الوديان داخل الجبل ..

وادى الكون .. الهيرا .. المهبول .. و .. وديان كثيرة كلها يمكن أن تكون من أجمل المناطق السياحية فى العالم لو وجدت الاهتمـــام ..

وتبدأ السيارة تهبط الجبل .. وتلوح قرية « توكرة » ويبدأ الطريق عاديا ...

لم يبق على مدينة بنغازى سوى ٧٥ كيلو متر فقد
التهنئة بالوصول ..

قطعت ٦٠٠ كيلو مترا من السلوم حتى هذه ال

لم أر خلال هذه المسافة الطويلة سوى ثلاث مدد

طبرق .. ودرنة .. والبيضاء .. العاصمةالجديدة .

ملايين الجنيهات فى الأرض لاقامتها .. اشباعا لنزوات

الناس فى علب

كل شيء هنا مستورد ، وكل شيء معلب ..
الأغذية فى علب .. الملابس فى علب ، اللحوم فى علب .. والمحلات علب مكدسة بكل أنواع البضائع .!

وخيل الى أن سياسة الاستعمار التى مرت بليبيا كانت على وشك أن تستورد الناس أيضا ، وان تضعهم فى علب ، حتى تكتمل الصورة ...

الحياة هنا سهلة جدا ، ليس فيها تعقيد المدينة . أشار صديقى الى رجل يمشى فى الشارع حاملا كيسا مليئا « بالكوسة والطماطم » وهو يقول :

— هذا هو المتصرف .. أى المحافظ !.

وقلت لصديقى :

— أريد أن أرى رئيس المجلس التنفيذى .

وسار معى الى بيته ..

البيت فى حارة ضيقة مخنوقة ، وأمامه سيارة مرسيدس جديدة .. وطرقنا الباب .. وفتحه طفل صغير ..

الصالة نصف واسعة ، والبيت فى مجموعه يشبه بيوت القاهرة العريقة القديمة ، وفى الصالة أطفال يلعبون فوق البلاط ، ويبكون .. ويصرخون ..

وندخل حجرة الصالون الفاخرة ..

ودخل علينا رجل يحمل القهوة ، وقدمها لنا ، وجلس .. وعرفت أنه رئيس المجلس التنفيذى ..

ومضينا نقطع الوقت بكلام أكثره مجاملة .. وتبددت وحشة الغربة عندى رويدا ، رويدا ، ومضيت أخوض معه حديثا عن المشاكل التى تعترض الولاية ..

مشاكل الناس العادية ، وما أكثر ما يعيش فيه الناس العاديون من مشاكل ..

وتحدث معى الرجل ، كما يتكلم عادة أى مسئول يحاول التبرير « نحن نخوض كفاحا مريرا منذ اللحظة الأولى لاستقلالنا » .. انه سباق رهيب ذلك الذى نعيش فيه ..

نريد فى سنوات قليلة أن نبنى ونشيد ، ونصنع قافلة تسير فى عصر الصواريخ ..

ولكن السنوات التى مرت من عمر الاستقلال لم تكن كافية !!

بدأنا من الصفر ..

الاستعمار ترك بلادنا ولا شىء فيها !!

وبدأنا نصنع كل شىء لنعوض ما فاتنا ..

ابناؤنا تخرجوا من الجامعة الليبية ، ومن كل جامعات العالم !

لنا بعثات تدرس فى كل مكان .. فى القاهرة .. فى ايطاليا .. فى انجلترا .. فى أمريكا .. فى معظم جامعات العالم ستجد طالبا ليبيا يدرس ، وطالبة ليبية تتحفز لكى تقتحم هذا الميدان الجديد عليها .

تركت رئيس المجلس التنفيذى بعد أن حدثنى طويلا عن مشروعات التعمير ، والتنمية ، وخطة السنوات الخمس .. مشروعات

ليست انتاجية ، لا يهم أن تنتج ليبيا ، المهم أن تظل سوقا لانتاج الغير .. هكذا قلت له .. وقال لى : ليس بالضبط .

***

انتهى حديثه معى .. وأنا أحس فيه لغة التبرير والدعاية أكثر من لغة الحقائق ..

ومضيت اتجول فى مدينة بنغازى عاصمة ولاية برقة .. الولاية الأولى من ولايات ليبيا الثلاث ..

وولاية برقة تقع على الساحل الجنوبى للبحر المتوسط بين خليج السلوم وخليج مدينة سرت ومساحتها ٨٥٥ ألف كيلو متر مربع ، ويسكنها حوالى ٣٠٠ ألف نسمة ..

وتشتمل الولاية على مناطق ساحلية قليلة الارتفاع عن سطح البحر .. ثم مساحات شاسعة تتدرج فى الارتفاع نحو الجنوب ، من الأراضى الصالحة للزراعة والمراعى .. وتليها مناطق كبيرة شبه صحراوية ... وتنتهى الى الصحراء الحقيقية حيث لا حياة .. ولا نبات .. وانما اعمدة البترول !

ومناخ المدن الساحلية بولاية برقة هو مناخ البحر المتوسط..

المدينة التى أسير فيها « بنغازى » هى عاصمة هذه الولاية الشرقية واحد العاصمتين قبل انشاء البيضاء ..

وبنغازى مدينة ذات تاريخ عريق يضرب فى الأرض الى ماقبل

الميلاد عندما وضعت اللبنة الأولى فيها تحت اسم « يوسبريدس » سنة ٤٤٦ قبل الميلاد ، على يد أحد أخوة الملك قورينا ثم كونت فيما بعد مع قورينا ، وأبولونيا ، وبرقة ، وتوكيره ما كان يعرف فى القدم باسم المدن الخمس .

وفى عام ٣٤٧ قبل الميلاد أطلق عليها البطالمة اسم « برنيق » وبرنيق اسم ملكة بطلمية اشتهرت بجمالها وشجاعتها ، وقد عثر على رأسها ضمن الآثار القديسة التى وضعت فى أحد متاحف ولاية برقة ..

وظلت مدينة « برنيق » صامدة .. مرت بها فترات انحطاط واضمحلال طويلة ، وفترات ازدهار قصيرة .. حتى جاء الفتح الاسلامى ليجدها مدينة صغيرة .. وفى عهد الفتح الاسلامى نمت المدينة وازدهرت ، وأصبحت مركز حربيا ، وتجاريا هاما ..

وفى سنة ١٤٥٠ بعد الميلاد ، نزل فى مدينة برنيق رجل صالح اسمه غازى .. سيدى غازى ، واستوطن المدينة ، ومات بها .. ودفن فى أحد مقابرها سنة ١٤٥٠ ميلادية .

وأطلق على المدينة بنى غازى .. ثم مالبثت الكلمة أن تحولت مع تدوال الاجانب الى كلمة واحدة هى « بنغازى » وبعد ذلك شهدت مدينة بنغازى حكم الأتراك . والاستعمار الايطالى .

وبعد الحرب العالمية الثانية أصبحت المدينة مقرا للادارة العسكرية البريطانية ببرقة ، وعاصمة للولاية سنة ١٩٤٩ ، ثم احدى عاصمتى المملكة الليبية المتحدة بعد الاستقلال سنة ١٩٥٣ .

بنغازى العاصمة الثانية للبلاد مدينة فيها أحياء راقية ، فيها بيوت وفيلات للعظماء .. فيها فنادق درجة أولى فاخرة .. فيهـا قنصليات وفروع لكل السفارات .. فيها معالم سياحية .. والى جوار كل ذلك تحس بالتناقض الذى تعيش فيه بلاد ثراؤها ليس لأبنائها بحق وعدل .. أزمة الاسكان الطاحنة ، والمدمرة ، جعلت الناس معظمهم يعيشون فى أكواخ حول المدينة وفى أطرافها .

وكل دولة فيها أزمة اسكان ، ولكن أزمة الاسكان فى ليبيا شيء مختلف .. انه اذا توفر أى مسكن فان ايجاره فوق طاقة أى فرد عادى .. ايجار أى مسكن مهما بلغت ضآلته لا يقل عن عشرين جنيها .

ويتبع بنغازى اداريا واحات ليبيا الخمسة . واحة جغبوب مقر الجامعة السنوسية التى أسسها السنوسى سنة ١٨٥٤ وهو مدفون بها ..

والواحة الثانية هى أوجلة ويسكنها البربر ويقال انهم الليبيون الأصـليون وما يزالون يحتفظـون حتى الآن بلغتهـم وداتهم وتقاليدهم ..

والواحات الثـلاث الباقيـة هى جالو والـكفرة ، ومرادة ويسكنها ليبيون يعيشون على تجارة التمور . والزراعة .

***

ولاية برقة لها قصة أخرى ، تعكس جانبا من تاريخ ليبيا كلها سنة ١٩٢٠ اصبح ادريس السنوسى اميرا لبرقة .

انعمت عليه ايطاليا بلقب أمير ووقعت معه اتفاقية قالت فيها انها عرفت بالتجربة عنايته بالسير وراء شئون البلاد .. لذلك فهى تمنحه لقب أمير ، وليس هناك مايجعلها تخالف رغبته بأن تكون رتبة الأمير ، من بعده بالوراثة لأولاده وأنساله الاكبر فالأكبر ..

وقدرت له معاشا شهريا ٦٣٠٠ فرنك ايطالى ..وأصبح أمير برقة ..

ولكن الوطنيون ثاروا .. ولم يقبلوا .. وكانت الحرب العالمية وترك ادريس برقة .. ولكنه ظل يتردد عليها ..

وتقارب مع الانجليز الذين كانت لهم السيطرة بعد هزيمة ايطاليا ، وبذلت انجلترا جهودا لكى تعيد ادريس أميرا لبرقة بعد انتهاء الحرب . ونجحت المساعى البريطانية فى برقة ، ولكنها لم تنجح فى طرابلس .. وجرت مباحثات بين وفود من برقة ، ومن طرابلس حول هذا الأمر أعلن الوفد الطرابلسى سنة ٤٧ فى بيان أنه من « العبث التمسك بمبدأ أمارة السيد ادريس » .

وبقوة بريطانيا وأسلحتها حملت ادريس على زيارة طرابلس والقيت قنابل فى الشوارع ، وبعث زعماء المدينة الى الأمم المتحدة ببيان استنكار قالوا فيه : انه قبيل الزيارة نفت السلطات العامة الى الأقاليم عددا من الأشخاص دون مبرر ، وزجت عدة أشخاص مع المجرمين العاديين ، كما الزمت أشخاصا عديدين بالبقاء فى بيوتهم ..

ولكن الأمم المتحدة قررت يوم ٢١ نوفمبر ١٩٤٩ منح ليبيا الموحدة الاستقلال .

وأن يجتمع مندوبون عن الولايات الثلاث فى جمعية وطنية لوضع دستور البلاد ، وتعين الأمم المتحدة مندوبا عنها وتختار مجلسا يساعده لمعاونة الليبيين فى وضع الدستور ويكون المجلس مكونا من حكومات مصر ، وفرنسا وايطاليا وانجلترا وباكستان وأمريكا ، وممثل عن كل ولاية من الولايات وممثل واحد عن الأقليات .

وفى جو من المعارك السياسية ، استطاع الحكم الملكى أن يشق طريقه الى ليبيا فى ظل نظام فيدرالى يضم الولايات الثلاث ..

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى تثور فيها مشكلة حول شكل الحكم فى ليبيا .. فمن قبل فى سنة ١٩١٨ اجتمع الزعماء الوطنيون فى « مصراته » احدى مدن ولاية طرابلس .. وبحثوا انشاء حكومة وطنية حرة .. وقرروا اعلان الجمهورية الطرابلسية وانتخبوا رمضان السويحلى ، وسليمان البارونى ، وأحمد المريض وعبد النبى بن خير ، ليمثلوا البلاد كلها ثم انتخبوا مجلسا للشورى من ٢٤ عضوا ومجلسا آخر شرعيا من العلماء ..

وكانت هذه الجمهورية هى التى تواجه الاستعمار الايطالى وتقود النضال ضده ..

حتى تسللت ايطاليا ثم بريطانيا بعد ذلك لفرض نظام جديد ، وأمير جديد ، بدأ ببرقة .. ثم انتهى بأن أصبح ملكا للبلاد ..

السؤال الذى فكرت فيه .. هو لمــاذا الأمير السنوسى بالذات ..

الاجابة .. لأن السنوسية طريقة صوفية .. دينية .. انتشرت فى شمال أفريقيا ، ووسط ظروف مظلمة كان يعيش فيها الشعب الاسلامى كله ، استطاعت الطريقة الصوفية أن تفرض نفوذها .

بدأ النفوذ دينيا ..

وليس هناك أحد ضد طريقة صوفية دينية ، بل أن مؤسسها لم يفكر — فى ذلك الوقت المبكر — أن تكون له علاقة بالسياسة ولــكن الظروف والأطماع حولت الطريقة الدينية الى لعبــة سياسية ..

ما هى الطريقة السنوسية ولماذا أصبح أدريس أمــيرا لبرقة بالذات ، وتوقف القتال فيها وتبودلت الأسرى ، بينما ظلت ليبيا كلها تخوض المعارك القاسية ضد الاستعمار .

الحقيقة أن الكتب التى كتبت عن السنوسية تحمل وجهات نظر متعارضة ، فالسنوسية ليست طريقة صوفية ، وان كانت قد أخذت من الطرق الصوفية بعض ما فيها رغم أن فى شمال أفريقيا الآن ١٨٠ زاوية سنوسية .

ولكى تفهم السنوسية فهما جيدا ، يجب أن ترجع الى الوراء الى سنة ١٧٨٧ .

ففى ٢٢ ديسمبر من ذلك العام ولد فى قرية مستغانم بالجزائر

أول من نادى بالدعـوة السنوسية هو السيد محمـد بن على السنوسى الخطابى الحسنى الأدريسى ، من سلالة ملوك الأدارسة الذين أسسوا الدولة الأدريسية وعملوا على نشر الاسلام فى المغرب ، وينتهى نسب هؤلاء الى الامام على بن أبى طالب ..

وقد درس القرآن فى قريته وكان يميل الى الأنطواء ىمضى وقته فى التفكير وانتهى به تفكيره الى الشعور بضرورة العمل لاعادة احياء الاسلام ، ونشره ..

وذهب الى « فاس » وتعلم فيها .. وظل يدرس حتى أصبح أحد المدرسين بالجامع الكبير بمدينة فاس ..

وانتشرت شهرته ، ودعوته الى العدل والخير ازدادت اقترابا من الناس حتى تنبهت اليه حكومة السلطان مولاى سليمان وخافت أن يتحول الى دعوة سياسية .. فأخذت تراقبه حتى قرر أن يرحل نهائيا عن البلاد . ولكنه لم يعد الى مسقط رأسه ، لم يعد الى بلدته مستغانم بالجزائر ، وظل يتنقل من بلد الى بلد ، ينشر دعوته .. ويلقى دروسا فى كل مكان يذهب اليه ، وكان بالجزائر عنـد مجىء الحملة الفرنسـية اليها وسقوط مدينة الجزائر فى أيدى المعتدين ... وفكر فى أن يعود الى قريته ، ولكنه رأى من الخير ان يستمر فى سيره صوب الشرق .

وجاء الى مصر ، واجتمع بعلمائها ، ولكنه لم يجـد لدعوته صدى عندهم .. ومرة اخرى غادر مصر الى الحجـاز وهنـاك

التقى بأحـــد العلمـــــاء ، وانصـــهرت روحيهمـــا ..
واتحـــدت افكارهمــا ، حتى ان حــكومة الحجــاز عنـــدما
طردت صديقه الى اليمن ، سافر هو الآخر الى اليمن .. وأقام
هناك حتى توفى صديقه فعاد الى مكة .. ومنها الى برقة عام ١٨٤٠
وتبعه بعضـــا من اهل طرابلس الغرب كانوا قد حضروا لينالوا
البركة منه .. وكان هؤلاء هم نواة نشر الدعوة السنوسية فى برقة
وطرابلس وأخذوا يبذلون الجهد فى سبيل نشر الدعوة .. فاقاموا
لها « الزوايا » ..

كان صاحب الدعوة يقيم فى زاوية « جغبوب » حتى مات سنة
١٨٥٨ . وكانت السنوسية قد استقرت . وانتشرت . كمبدأ دينى

وجعل من جغبوب مركزا لنشر الاسلام بين الزنوج الوثنيين
فى الأقاليم المجاورة لها . وخاصة « واداى » الذى قبل حاكمها أن
يدخل الطريقة السنوسية فى سلطنته ..

وخلفه ابنه السيد محمد المهدى السنوسى الذى ولد سنة
١٨٤٤ وانتقل الى الحجاز ليتعلم على أيدى شـــيوخ السنوسية
بزاوية أبى قبيس بمكة ثم أرسله والده الى جغبوب الجديدة ..
وعندما توفى الوالد ، احتل مكانه فى قلوب المريدين والأتباع .
وعلى يديه توطدت أركان الدعوة الجديدة وامتد نفوذ السنوسية
فى الأقطار الليبية والبلدان المجاورة .

وقد ساعد على انتشار الدعوة طول مدة امارته التى امتدت
أكثر من أربعين عاما .

وفى أيامه انشئت زوايا عديدة ، فى طرابلس .. وبرقة .. والواحات فى السودان .. والنيجر .

اثنين وعشرين زاوية اقامها أبوه ، وأقام هو مائة زاوية .. فى كل مكان من شمال أفريقيا .. ثم امتد الى الجنوب ..

وكان الهدف من انشاء هذه الزوايا وخاصة فى الصحراء أن تكون واحات ،يتعبد فيها الناس ، وترشدهم الى الطريق .. طريق السير فى الصحراء .. وطريق الخير .. فكانت الزوايا بيضاء ، تحيط بها أشجار ، بها مركز لنشر التعليم ، ومكان لينام فيه العابرون والأتبــاع .. وقد بلغ من نفوذ الدعوة السنوســية الدينى أن اعترفت بها الدولة العثمانية وأصدرت فرمانات سلطانية تعفيهم بها من الأموال الأميرية .

ولم يلبث السيد محمد بن على السنوسى الكبير ان نال من السلطان عبد الحميد سنة ١٨٥٥ فرمانا جعله بمثابة أمير المستقبل وتحول الدين الى السياسة !!

هذه هى قصة السنوسية التى انتهت بالتعاون مع الاستعمار ، وخلق الاستعمار من رئيسها أميرا لهذه الولاية التى آسير فى شوارع عاصمتها .

***

المدينة بها شارع واحد طويل اسمه شارع عمر المختار .. وكل شارع هام فى ليبيا يحمل اسم عمر المختار !!

وفى نهاية الشارع الحى العربى الأصيل .. يبدأ بشارع سوق الظلام الضيق الشبيه بالغورية .. المحلات على جانبيه .. أغلب المعروضات من البدل الجاهزة .. ان تفصيل البدلة فى ليبيا ٣٠ جنيها . بينما البدلة الجاهزة يبدأ ثمنها من ثلاثة جنيهات

الشارع الضيق صاخب .. صاخب .. اذاعة صوت العرب تنطلق من أجهزة الراديو .. والناس يتمايلون مع الاغانى المصرية يساومون ... ، ... ويشترون ..

ليس فى بنغازى سياسة واضحة للاستعمار .. ما تشتريه من محل بعشرة جنيهات تجده فى المحل المجاور بثلاثة فقط .. وهكذا فليس هناك اية رقابة على الاستعمار ..

وعندما أمسكت بالدليل السياحى ، وجدت أن أسعار الفنادق فيه تبدأ من ستين قرشا .. ذهبت لأسأل مدير السياحة عن عناوين هذه الفنادق المتواضعة ، فابتسم وهو يقول :

ـ الدليل ده مطبوع سنة ٥٩ . .

وفى سنة ٥٩ لم تكن آثار البترول قد ظهرت .. وأثرت على كل شىء وفى مقدمتها الأسعار ..

الغلاء هنا لايطاق .. كيلو الكوسة بتسعين قرشا ..

وكيلو اللحم بخمسة وسبعين قرشا استرلينيا ولقد كان أهم ما يميز ليبيا حتى عهد قريب ، كثرة المراعى .. وتربية الأغنام ، حتى أننا كنا نستورد اللحوم من ليبيا .. أما الآن فقد تدخل

البترول .. وهجر الناس المراعى .. وارتفع سعر اللحم ..وأصبحت ليبيا تستورده أيضا . !

الموارد الغذائيــة تأتى فى المرتبــة الأولى من واردات برقة ٦٦٫٠ ٪ من الواردات تأتى من أربع دول هى انجلترا وأمريكا أولا ثم ايطاليا وألمانيا الغربية .

وقد لا يحس أبناء البلدة بالغلاء ذلك أنهم يعيشونه كل لحظة

.. ولكن الزائر سرعان ما يلمس ارتفاع أسعار كل شىء .. وأن أرخص شىء هنا هى النقود ذاتها ولكنها ليست فى يد كل الناس ..

كنت أجلس على القهوة .. وجاء رجل لينظف الحذاء .. وبعد دقائق طلب منى قرشين .. ونظرت فاذا به لم يضع « ورنيش » على الحذاء .. قال

ـ مسح الجزمة بالورنيش عشرة قروش ليبية .. أى حوالى ١٢ قرشا مصريا .. أما مسحها بدون ورنيش فقرشان ، والورنيش نفسه رخيص جــدا .. ولكن الجهــد البشرى غــال ...جدا لأن الحياة نفسها غالية جدا أيضا !!

« مدينة بنغازى » ضيقة منهكة تنوء بما تحمله من أثقال .. ان الجديد فيها والوافدون عليها اقوى منها !

ولذلك فالفنادق كلها مزدحمة ، ولن تستطيع أن تحصل على

غرفة فى فندق بسهولة .. ولا يقل أجر الغرفة المتواضعة عن جنيه واحد ثمنا للمبيت فقط !

وهنا رؤوس أموال ضخمة ، وهى لاتتجه نحو البناء .. خاصة وأن مشروع ميناء بنغازى الجديد الذى سيتكلف سبعة ملايين جنيه .. يضفى على المدينة حياة جديدة ، أكثر صخبا وهديرا . !

***

أسعد الناس هنا هم التجار .. وأتعسهم الموظفون ..

ولاية برقة يسكنها ٤٠٠ ألف ليبى و ٢٦٠٠ أجنبى . والناس هنا يكرهون الايطاليين .. أنهم يحسون بالجرح العميق الذى خلفه الاستعمار الايطالى .. مدينة بنغازى نفسها تعرضت خلال سنوات الحرب لأكثر من ١٢٠٠ غارة ، وتبادلتها القوات المتحاربة .. قوات المحور والكومنولث خمس مرات وكان وقود الحرب من الوطنيين دائما ، ونقص عدد السكان وأصبحوا الان ٣٤ شخصا فى كل مائة كيلو متر مربع !

وبالرغم من ذلك ، فان برقة لم تتخلص نهائيا من آثار الايطاليين انك تلمحه فى طريقة الحياة .. فى البناء .. فى المطعمين الوحيدين اللذين يقدمان قائمة طعام بالايطالية ، وغذاء ايطاليا .. ويفتحان بمواعيد حتى انك اذا تأخرت عن موعد الغذاء المحدد .. خمس دقائق .. فأنك لن تجد طعاما فى المدينة كلها .

ليس هنا مصانع كبيرة ، ولا صناعات ..

التجار هنا يفعلون كل شيء .. ويكونون الفئة الأولى .. ومن ورائهم المقاولون والسماسرة لكل شيء . الذين يكونون صورة المجتمع الراسمالى ، ولكن راس المال لا يتحول الى مصانع ، ومعامل انتاجية ، انه غالبا يكدس . ليمارس نفوذه وسطوته .. يتدخل فى المقاولات .. فى شراء الشركات الأجنبية ، فى الوساطة وتوريد العمال وغيرهم لشركات البترول ..

والعمال هنا كثيرون .. يعملون لدى شركات البترول والمقاولات والتجار ، وفى المصانع الصغيرة ..

وحقوق العمال هنا مهضومة .. ويوم ذهبت لاتحاد عمال برقة لاناقشهم ..كان هناك أكثر من وجه غريب ينتظرنى على الباب .. لا اعرف كيف عرفت هذه الوجوه بموعدى .. وشربت القهوة فى اتحاد العمال .. قهوة كانها شربات ، فهم هنا يشربون القهوة كالشاى .. أكثر حلاوة من السكر ..

وجلست بضعة دقائق ثم انصرفت ، لاجد وجها غريبا فى الفندق .. لم يغادره طوال مدة اقامتى ..

***

ماذا يعمل السكان ..!

ان سكان المدينة ، من التجار . والموظفين .. الموظفين فى الحكومة ..

والهيئات .. وشركات البترول ..

والأرقـام ـ تقـول « ان ١١٪ مـن السـكان كانوا يعملون فى الزراعة وان استغلال الأراضى الزراعية عرضة للتغيير من عام الى آخر .. وهذا يتوقف على كميات نزول الأمطار .. ولم يقل التقرير .. وعلى نشاط شركات البترول أيضا . !

والجامعة الليبية فى بنغازى تضم كليات الآداب .. والتجارة والحقوق .. وكلية للعلوم وفى طرابلس ..

والتعليم فى الجامعة مجانى .. ويمنح الطالب خمسة جنيهات شهريا .. هذا بالنسبة لأبناء المدينة ، أما الغرباء عن أبناء الولاية والولايات الأخرى فيقيمون فى الداخلية مجانا أيضا .. ويمنحون خمسة جنيهات كمصروف . !

والتعليم يطفر .. طفرات شديدة .. كان الليبى لايدخل الا المدرسة الابتدائية أيام الايطاليين ولم يكن بالولاية سوى ٣٠ مدرسة .. أما الآن فان بها ٢٤٥ مدرسة فيها ٥١ ألف طالب وطالبة موزعين على المدارس الفنية ، والثانوية ، والاعدادية ..

وبرامج التعليم فى ليبيا .. كانت هى نفسـها فى الجمهورية العربية مع اختلاف واحد .. فى دراسة المجتمع المحلى الليبى ..

وهناك نوع غريب من المدارس ، ١٤ مدرسة لابناء البادية . المدارس فى أماكن بعيدة فى الصحراء يترك فيها البدو أولادهم الذكور ليتعلمون فى الداخلية بالمجان ..

فالبدو رحل .. غير مستقرين .. ولكن المدرسة مستقرة .. وعليهم أن يتركوا أولادهم .. ويعودوا من جولاتهم لزيارتهم ..!

لم يبق فى بنغازى .. لم نتكلم عنه .. سوى المستشفيات . والصحف .! فى برقة ١٠ مستشفيات حكومية و ٦ مستوصفا .. و ٦١ طبيبا حكوميا معظمهم اجانب ..

والصحف ..

فى برقة ثلاث صحف ، أحدهم حكومية ..

ولقد زرت الصحف الثلاث .. صحيفتى العمل .. والرقيب .. وبرقة الحكومية ..

ماذا كانت الصحف تكتب وانا هناك ؟؟

صحيفة العمل كانت تناقش السياسة البترولية .. وآثارها الاجتماعية .. وتطالب بمزيد من الرقابة على شركات البترول .

وصحيفة الرقيب كانت تطالب بتخفيض ايجار المساكن .. وأصدار قانون من أين لك هدا !!

وشىء آخر ..

فى برقة فرع لمنظمة كير الامريكية .. والمفروض أن مهمته

انسانية . ولكنه انحرف عنها الى مهمة سياسية .. وجريدة الرقيب قالت :

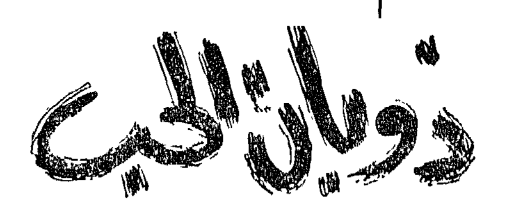
« ان المنظمة تقوم بتقديم الحليب .. والجبن ، لطلبة المدارس مرفقة باسئلة عن آرائهم فى نظام الحكم فى البلاد ، وفى حكومة الشعب ، كما تقوم دائما بايهام الطلبة بأن أمريكا هى صاحبةالقلب الحنون الذى يعطف عليهم ، ولولا أمريكا صاحبة القلب الرقيق لتأخرت بلادهم .. ولما اكتشف البترول .. ولما أصبحت ليبيا بهذا الشكل المزدهر . . »

* * *

وأخيرا .. ان ولاية برقة هى أكبر ولايات ليبيا الثلاث . ان مساحتها ٤٩ ٪ من مساحة ليبيا .. وهى الولاية ذات الحدود المشتركة مع بلادنا ..

والناس فى صحرائنا الغربية ، وفى برقة ينتسبون الى قبيلة واحدة هى قبيلة الاولاد على .. واعطتهم اتفاقيـــة عام ١٩٢٥ الحق فى التنقل بين الدولتين بتصاريح عادية جدا .

وفى برقة سوف تحس بالعروبة .. ستحس انك فى بلادك .. وان كل ما يفصلك عن ليبيا .. هى أسوار وهمية .. وحواجز مصطنعة ..



هذه المدينة غريبة ..

الناس فيها متنافرون .. ذاب الحب بينهم منذ عشر سنوات ، ومع ذلك فهم يتكلمون لغة واحدة .. ويعيشون بطريقة واحدة .. ويسكنون بيتا واحدا أعمدته الكراهية .

ومع الحب الذى ذاب .. تعيش متناقضات عديدة ..

البارات كثيرة .. مليئة بالرواد .. والمساجد كثيرة مليئة بالمصلين ..

المرأة المحجبة تسير بجانب المرأة السافرة . التى ترتدى البنطلون .. والقبعة .. والنظارة الامريكية السوداء . الناس محافظون .. متدينون .. وهناك بغاء رسمي..والشوارع.. الشوارع الواسعة تموج بهذا الخليط .. المتناقض المتنافر من الناس .. والاشياء ..

سألت سائق السيارة التى حملنى من المطار الى مدينة طرابلس الغرب :

— ماهو أبرز ما يميز طرابلس عن برقة ..

ورد السائق على الفور :

— الأجانب

طرابلس أكبر مدنية ، لذلك فان عدد الأجانب فيها أكثر ..

والقيت بحقائبى ، وأمتعتى فى الفندق ، وخرجت مسرعا الى الشارع ..

أريد أن ترى عيناى المدينة لأول مرة فى حياتى .. وفى نفسى انطباعات عنها كنت قد حصلت عليها من خلال الأحاديث المتناثرة التى دارت بينى وبين الناس فى بنغازى ..

كنت أسير فى الشوارع الرئيسية للمدينة .. شوارع الاستقلال و٢٤ ديسمبر ، و .. عمر المختار ..

وكلمات السائق تصفع أذنى ، مع ما اسمعه من لهجة ايطالية حتى على ألسنة الليبيين أنفسهم ..

الأجانب الايطاليون وغيرهم مازالوا يحتفظون بكل شىء ..

وظائف كثيرة فى الشركات لهم .. مكاتب كثيرة افتتحوها .. يتاتهم فى أعمال كثيرة متنوعة .. طريقة حياتهم لم تتغير ، الفاشية الايطالية تجرى فى أعماقهم ..

السكان الليبيون الذين فرض عليهم الاستعمار وغير كل شيء حتى لغتهم ، يحســـون بظلم وقسوة الاستعمار الذى حول كل شيء الى ايطالى ، حتى اللغة الرسمية السائدة كانت الايطالية .

وكانت هـــذه الشوارع التى أسير فيها وقفا على الأجانب ، وممنوع .. ممنوع على أصحاب البلد أن يدوسوها بأقدامهم ..

ومضت سنوات وسنوات والايطاليون يحاولون تعميق كل ما هو ايطالى .. حتى أصبحت النساء العربيات المحجبات يتكلمن الايطالية !

وسنوات .. سنوات أخرى مضت عمرها عشر على الاستقلال .. والعرب يحاولون تعميق كل ما هو عربى .. اللغة .. الدين .. نظام الحياة !

كل ابنــاء طرابلس الذين عاشـــوا ســـنوات الاســـتعمار يتكلمون الايطالية ، وكل أبناء طرابلس الذين عاشوا سنوات الاستقلال .. لايتكلمون الا العربية .. والايطاليون الذين يعيشون داخل البلاد .. ما زالوا يتمتعون بالجنسية الايطالية .. وما زال فى أعماقهم دم الســـادة !!

انهم يشـــعرون أن هذه البلاد كانت لهم .. ولذلك فهـــم لا يختلطون بالسكان .. أنهم يعيشون فى بلدة واحدة .. وفى بيت واحد أحيانا .. ولكنهم لا يختلطون !

والبنت .. البنت الايطالية المتحررة تصادق من تشـــاء .. وتتحدث مع من تشاء من السكان .. ولكنها لا تتكلم مع العربى .. ولا تصادقه .. انها هى الأخرى تعيش وسط هالة من الكبرياء الكاذب !

والشعور بالكراهية المتبادل .. يمتد الى ايطاليا ذاتهـــا .. قرأت فى احدى الصحف الليبية .. ان عددا من الايطاليين فى روما .. قد احتفلوا بمناسبة ذكرى احتلال ليبيا !

وتقرير البنك الدولى يقول ان عدد الايطاليين فى ولاية طرابلس ٣٨ ألف ايطالى .. يسكن ثلثاهم فى المدينة ، والثلث الباقى يسكن القرى المجاورة .. حول المزارع الواسعة التى يملكونها .. وعددها ١٤٠٠ مزرعة ..

ويقول أيضا ان الجالية الايطالية تحتـــل مركزا خاصا فى الاقتصاد الليبى .

وفى ولاية طرابلس يسكن ٩٢ ٪ من الأجانب فى ليبيا ، بينما يسكن فى برقة ٧ ٪ فقط .. وفى فزان تقل نسبة الأجانب حتى تصل الى ١٪ ، وبين هؤلاء الأجانب عدا الايطاليين الذين يكونون الغالبية العظمى انجليز ٣ر٩ ٪ مالطيين ٣ر٢ ٪ وعرب « من الجمهورية العربية وتونس والجزائر والاردن » ٣٨ر٢٪ وتقول الاحصاءات أن بين الليبيين المقيمين فى طرابلس ٤٤٤٩ يهوديا .. ومن هؤلاء الأجانب ١٩ ألفا يعملون فى التجارة .. هذا عـــدا اليهود طبعا ..

صدر فى ليبيا قانون يمنع تملك الأجانب .. وأعطى الاجانب الذين يتملكون فعلا مهلة لبيع ما لديهم .. وتحويل أموالهم للخارج واعادته للايدى الرأسمالية الليبية .

الحكومة تشترى الأرض .. لتعطيها للفلاح الذى يدفع .. ان ثلث المزارع أعيدت الى الوطنيين .. والبنك الزراعى يقرض للفلاح نصف ثمن الأرض اذا أراد أن يشتريها من الايطاليين .. ويسدد الفلاح القروض على أقساط طويلة الأجل .

ولاية طرابلس هى أصغر ولايات ليبيا من حيث المساحة .. مساحتها ١٤٪ من مجموع مساحة البلاد ، ولكنها اكثر الولايات كثافة بالسكان اذ يسكنها ٧٣٨ ألف أى ٦٨ ٪ من مجموع السكان .. وكثرة عدد سكانها تبدو واضحة اذ عرفنا انه يوجد ٢٦٨ شخصا فى كل مائة كيلو .

والسكان المستقرون فى طرابلس ٨٠ ٪ من الأسر بينما شبه الرحل والرحل ٣٠ ٪ .

والولاية تنقسم الى ثلاث مقاطعات .. الغربية ، والشرقة ، والوسطى .. وكل مقاطعة تنقسم الى متصرفيات .. وعدد المتصرفيات ــ المحافظات ــ متصرفية ..

وتمضى الحياة فى طرابلس أكثر يسرا ..

الحكومة تدخلت ... وخفضت الأسعار ... وكان تخفيض الأسعار هو الحدث الهام الذى شغل به الناس طوال اقامتى فى طرابلس ..

تدخلت الحكومة بعد أن ارتفعت الأسعار ارتفاعا جنونيا أدى بالحكومة الى أن تصرف لموظفيها علاوات غلاء لأول مرة .. وصلت فى بعض الأحيان الى ٤٠ ٪ من المرتب ..

ولكن .. حتى هذه العلاوة الضخمة .. لم تصمد أمام موجة الغلاء ..

فتدخلت الحكومة مرة ثانية .. وخفضت الأسعار .. وسعرت بعض المأكولات !

ومازال فى ولاية طرابلس زراعة ..أن بها أربعة ملايين شجرة زيتون .. وغابات ..وفواكه .. وموالح .. وتمر ..

وبها مصـــنع حكومى للتبغ .. فالحكومة تحتكر صـــناعة التبغ .. ويزرع بموجب تصريح خاص منها .. والمصنع ناجح .. حتى أنه فى العام الماضى أنتج ٦٤ مليون سيجارة عدا الأنواع الأخرى .

ومن الغريب أننى قرأت فى تقرير البنك الدولى هجوما على احتكار الحكومة لصناعة التبغ .. وكأن البنك الدولى .. يريد أن يســـلم هذه الصناعة هى الأخرى الى الأجانب .. حتى يكون الأقتصاد سليما من وجهة نظره ..

وليس هذا وحده ..

نسبة الأمية فى ليبيا كلها عندما نالت الأستقلال تزيد على ٩٠ ٪ .

وبعد الاستقلال .. قامت جهود وطنية لتعويض هذا النقص فى التعليم .. والمدارس المهنية والثانوية ، ولم تكن موجودة فى عهد ما قبل الاستقلال عددها الآن ١٨ مدرسة ..

صحيح أنه لم يمض من عمر الاستقلال سوى عشر سنوات.. وأن هذه السنوات لم تيسر الا عددا قليلا من الكفاءات اللازمة .. وأننا نلمح فى معظم المرافق أجانب .. موظفين كبار .. فى مراكز هامة ! .. كل هذا معروف .. وكل ذلك لابد من القضاء عليه .. ولكن بعثة البنك الدولى لهـا رأى آخر .. انهاتدافع عن هذا الاتجاه .. وتطلب تشجيع الأجانب واغراءهم على العمل فى ليبيا بشتى الطـرق . وتغلف هـذا الرأى الخطير بكلمات ظاهرها العطف . والبحث . والدراسة . فقد قال التقرير مانصه :

« ان ليبيا ستظل فى حاجة الى الأجانب فى المراكز الرئيسية فى الحكومة الاتحادية .. ويمضى التقرير يقول :

« اننا نؤيد بقوة تسـليم الليبيين عـددا أكبر من المراكز الحساسة بصورة تدريجية .. غير أن مصالح ليبيا تتضرر كثيرا اذا عجلت باستبدال الأجانب بالليبيين بسرعة كبيرة » .. ثم .. [illegible]عى التقرير الى محاولة اغراء عدد جديد من الأجانب للعمل بليبيا.

أن كل مرافق ليبيا تتجدد . ورأس المال يمكن أن يتدفق فيها كى ينمو ، ويتحول الى ملايين

فنادق جديدة تقام .. معرض دولى دائم سيقام كل [illegible]ام ..

الآثار يعنى بها وعندما كنت فى طرابلس قامت عاصفة مدمرة .. وأغلق الميناء .. والمطار .. ولم أخرج من الفندق .. واستمرت العاصفة يومين . وبعدها .. كانت المياه قد اتخذت شكل سيل عارم .. وسارت من الجبل .. حتى البحر .. وحطمت فى طريقها كل شىء ..

وفى اليوم التالى كانت جريدة الرائد غير الحكومية تتصدر صفحتها الأولى بمقال عنيف كتبه النائب مصطفى المصراتى عن فيضان الوادى .. ويطالب الحكومة بأن تفعل شيئا .. أى شىء حتى لايتكرر ذلك مرة أخرى ..

أن مياه الأمطار تتجمع فى وادى المجينين .. فى مساحة ٦٥٠ كيلو متر مربع .. ثم تشق طريقها الى البحر .. ووراء هذا الوادى الذى يهـــدد المدينة الجميلة كل شتاء قصة ترجع الى أكثر من ثلاثين عاما عندما كان الرعاة .. يرعون فى الجبل .. ونحلت الماعز النبات والأعشاب كلها .. وأدى ذلك الى أنهيار التربة فى بعض أجزاء تجمع المطر ..

وفى كل عام يأخذ السيل طريقه ..

وفى ذلك العام .. تمرد على طريقه العميق المحفور له .. واتخذ الطريق المرصـــوف . للســـيارات . وحطم الطـــريق . وراحت المياه فى البحر . !

ان طرابلس مدينة شبيهة بحى كبير من أحياء الاسكندرية .. وفيها الى جانب الشوارع الحديثة شوارع قديمة .. الســـوق

التركى .. سوق عربى ضيق .. كله محلات تجارية . يتمدد أصحابها أمامها فى كسل ..

* * *

فى طرابلس لابد من الحديث عن شيئين هامين :
الأول هم اليهود ..
والثانى هى القاعدة الأمريكية ..

• اليهود فى طرابلس يسيطرون على الجزء الأكبر من التجارة والاقتصاد .. وعندما تدخل بوابة الحى العربى القديم من المدينة تلمح آثار اليهود .. ليسوا فقط داخل المدينة الحديثة بل ان تجارتهم أيضا داخل الحى العربى نشيطة ..

ويهود ليبيا لهم مواقف يعرفها الشعب الليبى ..

وكان الناس مع كل تحرك عربى يأملون أن تتخذ خطوات ان لم تكن للقضاء عليهم ، فانما تكون بمراقبتهم . ومنع نموهم الاقتصادى بهذا الشكل ..

أما النفوذ الأمريكى فى طرابلس فهو يتمثل أساسا فى قاعدة « هويلس » أكبر قاعدة بحرية وجوية لأمريكا خارج الأراضى الأمريكية .. قاعدة هويلس تبعد ٤ أميال عن مدينة طرابلس ..

وهى مدينة كاملة يسمونها الملاحة ، تضم المبانى ، والمنازل ، ومحطات المياه ، والكهرباء ، ودور الترفيه والخدمات .. وكل ما يمكن أن تحتاجه المدينة ، بحيث تحقق اكتفاء ذاتيا تماما عن المدينة .

وليس هنـــاك رقابة على ما يدور داخل هــذه القاعدة ، الطائرات تخرج منها ، وتعود ، ولا يعلم أحد شيئا عما يجــرى فيها .

يقال ان هذه القاعدة هى مركز لتدريب الطيارين من كل أنحاء العالم !!

• ويقال انه يدرب فيها طيارى دول حلف الأطلنطى فقط ..

وأنها قاعدة لتجريب كل الأسلحة الجديدة ..

هذه القاعدة أقيمت سنة ٥٤ بموجب اتفاقية تنتهى فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٧٠ . وتتجدد ما لم تخطر احدى الحكومتين فيتم انهائها بعد الاخطار بعام .

الاتفاقية .. تنص على أنه يجوز تدريب عسكريين من دول أخرى فى الأراضى الليبية .

تجرى القـــاعدة مناورتها فى الصحراء .. بكل الأسلحة .. لأمريكا مطارات أخرى فى برقة . ولكنها ليست أساسية . ولها فى طرابلس أيضا قاعدة بحرية فى « هون » بالقرب من المدينة ..

القاعدة ليست كل المصالح الأمريكية فى ليبيا ، هناك مصالح أخرى حيوية غير التجارة والشركات وخاصة بعد تفجر البترول ، فان ٥ شركات امريكيـــة تستغل البترول هناك ، واول شركة استخرجت البترول وصدرته من « مرسى بريقة » سنة ٦١ كانت شركة امريكية ..

الشركات الخمس هى :

* ستاندرد أويل أوف نيوجرسي » التي تستخرج يوميا أكثر من ٦٠٠ ألف برميل . وهذه الشركة تمتلك مصنعا لتذويب الغاز الطبيعي في « بريقة » ويصدر من الغاز الطبيعي الى ايطاليا وأسبانيا ١٢ مليون متر مكعب يوميا كما تمتلك الشركة خط أنابيب وشبكة توزيع طاقتها الانتاجية مليون برميل يوميا .
* تكساكو وتبلغ طاقتها الانتاجية حوالي ٢٠٠ ألف برميل يوميا .
* موبل أويل .. وتبلغ طاقتها الانتاجية حوالي ١٥٠ ألف برميل يوميا .
* كونتنيتال أويل .. وطاقتها الانتاجية حوالي ٢٥٠ ألف برميل يوميا .
* اتلانتيك وتبلغ طاقتها الانتاجية حوالي ٣٠ ألف برميل يوميا .

وأخيرا ..

ان في طرابلس حياة متفتحة .. حياة المدينة التي تحاول قوى أن تشدها عبر البحر الى الخارج .. بينما يرتكز ثقلها في الأعماق في الأرض العربية الطيبة .. التي تنزف كل ذرة من ترابها دماء عريقة أصيلة سالت وهي تدافع عن عروبتها طرابلس هي التي اعلنت فيها الجمهورية الليبية الأولى منذ سنوات عديدة .. أن طرابلس العربية تزداد عروبة مع الأيام ..



لذيذة حياة القبائل ..

لا زمن .. ولا قلق .. ولا متاعب .. حياتهم رمال ناعمة .. وعمل كسول .. وحب ساذج !

انهم لا يفكرون فى المدينة .. لانهم لا يعرفونها ولا يفكرون فى الحضارة .. لان حياتهم لم تتعقد !

وعندما يكون جاجارين ، قد أتم دورته حول الارض ، يكون الفرد منهم ، قد تحرك من مكانه . وسار عشر خطوات وراء الغنم ..

لقد رأيت فى فزان حقائق عجيبة .. وحياة لذيذة !

أشخاص يرقصون طول الليل .. ويعملون بالنهار !

وسوق .. سوق كامل للنساء .. يعقد بعد ظهر كل يوم ..

الطائرة التى نقلتنى من طرابلس الى فزان ، اشبه بأتوبيس قديم حتى ظننت ، انها صنعت بوكالة البلح بمدينة القاهرة من مخلفات السيارات القديمة .

لم يكن فيها سوى .. ثلاثة ركاب وحدت المحنة بين قلوبنا .. فمضينا نشيع بعضنا بنظرات الشـــفقة .. ونحن مربوطون فى المقـــاعد !..

وفى الطائرة قرأت الفاتحة ثلاث مرات .. وذهبت الى دورة المياه عشر مرات .. وتلاشت أمامى كل الصور .. الا صـــورة أولادى ..

و .. أربع ساعات رهيبة مضت ، والعاصـــفة تعبث بهيكل الطائرة ذات المحركين .. والمضيف الليبى يقـدم لنا السميط .. ويطمئننا بأننا على ارتفاع ٧٥٠٠ قدم فقط .!

ثم .. ثم نزلنا مطار سبها .. عاصمة ولاية فزان ..

المطار أرضه ليست مرصـــوفة .. والطائرة تتلوى فيه حتى لا تغوص فى منطقة لينة من الرمال ..

واجراءات بسيطة لتسجيل الركاب الغرباء الذين يتنقلون بين الولايات الثلاث ... وبعدها نترك المطار الى العاصمة . !

الطائرة جديدة .. لامعة .. عمرها ثلاث سنوات فقط .. فلم يكن هناك قبل هذا التاريخ شىء اسمه « سبها » . !

البيوت كلها فيلات من طابق واحد .. وكل بيت له حديقة ..

ومســاحة الأرض واسعة .. وعدد السكان قليل ، فلماذا يبنون طابقـين ..

وسرت الى الفندق .. فندق سبها بالاس . !

وهناك استقبلنى صاحبه .. استقبالا حارا .. بأحضـانه .. ودموعه .!

وعرفت أنه « مصرى » من رشيد .. وأنه يعيش بعيـدا عن بلاده بأربعة آلاف كيلومتر ، وأنه ستقبل كل مصرى وافد على سبها .. بالأحضان ، والقبلات والدموع ..!

وسألت الحاج مرسى زكى :

— كيف تفكر فى بلادك ، وتحن اليها .. وأنت هنا !

وجذبنى من يدى الى داخل الفنـدق .. فنـاء واسـع فيه شجيرات قليلة ، ونباتات وليدة ، وفى الركن غرسـة .. قطن .. طويلة جافة .. يتدلى منها قطن أبيض مغموسـا بتراب .. ورمال وجفاف .. لقد جفت الشجرة منذ شهور ، ولكنه لم يخلعها .!

وقال الحاج مرسى ..

— عندما أتذكر مصر . أنظر الى هذه الشجرة .!

ومضيت أتحدث مع الحاج مرسى الذى يجيد خمس لغـات غير العربية ، قال لى أنه كان يعمل فى عدة فنادق فى بنغازى ، يتردد عليها رئيس المجلس التنفيذى ، ويحدثه عن فزان ، وعن الأجنبى مستأجر الفندق الوحيد بها .. وعن مستقبل فزان .. واتفق معـه على أن يدير الفندق ، ومن يومها .. « من ٣ سنين لم أترك سبها

ولكن أخبار مصر لم تنقطع عنى .. الفـــول المدمس .. الجبنة البيضاء .. الطعمية .. اننى أقدم كل هذه الأشياء !! » .

وصمت الرجل .. ومضت دقائق حرجة مؤثرة قطعها صوته :

— مفيش معاك عود قصب ..

وعجبت .! ثم اتضح أنه لا يهزل ، وأنه يسأل ســؤالا جادا عندما طلب منى أن أرســـل له « عقلة » قصب مع أى شخص ليزرعها فى الفندق .. فالأرض هنا جيدة .. صـــالحة للزراعة جـــدا .!

والزراعة هى المصدر الرئيسى للدخل ويشـــتغل بها معظم السكان ، وفى فزان ١٢ مليون نخلة .. غير الحبوب .. والفواكه .. والخضروات .. واللوز .

وقال لى الحاج مرسى أن بفزان ٨ مزارع نموذجية للتجارب ونصحنى بزياراتها وأنا أتجول فى « الدواخـــل » لأرى الآلات الحديثة .. والمرشدين الزراعيين .. وأشياء كثيرة يمكن أن يعطينى فكرة واضحة عن خصوبة الأرض التى أنتجت هذه الشجرة من القطن ..

الحاج مرسى زكى ، شخص مريب رغم كل هذه الأحضـــان والقبلات .. ليس مريبا فقط لأنه يهودى طرد من مصر ، ويحاول دائما أن يبين أنه مصرى ، لأن عددا كبيرا من المصريين يعيش هنا، ولأن المصريين الذين هنا يحتلون مناصب كبيرة .. ويحاول أيضا أن يبكى على مصر لأن كل سكان ولاية فزان يحبـــون مصر ويعتبرونها وطنهم الثانى . يحبون أن يسمعوا كل شىء عنها ، و

يعيشوا فيها .. ويهزهم كل حدث صغير فى مصر ، يتحدثون عنه. كما لو كان قد وقع بعيدا عنهم بخطوات .

ليس الحاج مرسى مريبا لذلك فقط ، بل لأنه يملك الفندق الوحيد فى المدينة ، والمطعم الوحيد ، والبار الوحيد فيها ..

ولقد استضافنى أكثر من شخص مسئول ، وغير مسئول فى المدينة ، وكانت دعوتهم لى على الغذاء أو العشاء .. وتمت كل الدعوات داخل مطعم الحـــاج مرسى فى فندقه ، بل على نفس المنضدة ، والذى تغير هو شخصية الداعى .

وزوجة الحاج مرسى رشيقة ، تطبخ ، وتعد الطعام للرواد ، وتعنى بشأن المقيمين ، فهى معاونته الأولى فى عمله ..

ولا شك أن الحاج مرسى قد استطاع فى هذه المنطقة النائية وبهذه النعومة أن يكسب الكثير من الأموال ، ومن العطف ..

* * *

فزان بعيدة .. وحدودها مشتركة مع النيجر .. وتشاد .. وصحراء الجزائر الكبرى .. واسمها كما ورد فى الكتب يرجـع الى « فزان بن سام ابن نوح » .!

ولقد مرت بالحكم التركى .. ومن بعده بالاستعمار الايطالى .. تشكل جيش من الليبيين الموجودين بتشاد .. ورحف بيحرر جنوب ليبيا .!

وظل أحمد سيف النصر حاكما لفزان حتى أعلن الاستقلال ..

ثم كانت مؤامرة فرنسية لفصل فزان .. وتدخلت الأمم المتحدة .. وأجرى استفتاء للسكان ولـكن سيف النصر حمى الولاية من المؤامرة ، فقد أصدرت فرنسا طابعا باسمه .. ونقودا باسمه .. واستغلت شعبيته بالحكم ... ولكنه كما قيل لى — حسب خطة موضوعة — خدع فرنسا فى اللحظة الأخيرة وقرر أن تكون فزان ولاية من ولايات ليبيـا ... وظل واليا حتى توفى فجأة بعد عمه عمر سيف النصر . الرجل الكبير . وعائلة سيف النصر تملك كل شيء فى فزان .

* * *

- على حدود صحراء الجزائر وفزان مدينة غريبة .. اسـمها غات ..

سكانها من القبائل « البتو .. والطوارق .. والغـاتية » .. وللمدينة تاريخ .. فقد ضربتها فرنسا بالقنابل مرتين انتقـاما للاسلحة التى تهرب منها للمجاهدين الجزائريين ..

قال لى مدير المطبوعات أن أهل غات يتكلمون أربع لغـات الهوسا ، والطارقية ، والفرنسية والعربية طبعا .

والمدينة فى النهار عادية جدا .. عين ماء تجرى وسـطها ، وأشجار الفواكه تحيط بها ، وبقية من تجار الجنـوب يتبادلون التجارة مع السكان الذين يصنعون الحراب والخناجر ليبيعـوها للسياح ! ..

والناس يزرعون .. ويتاجرون .. و .. وحياة عادية .!

ولكن هذه الحياة العادية تنقلب رأسا على عقب .. فى الليل .. ان المدينة لا تنام الليل .. كل الناس يسهرون .. ويسمرون !.

وليل المدينة رقص .. وغناء .. الخيول ترقص .. والجمال ترقص .. البنات يرقصن ، والشباب يرقص ، والشيوخ يغنون ، ويقرعون الطبول .. ويرقصون مع الأنغام .. ولا يمنعهم عن الرقص الا وفاة واحد من أبناء المدينة .. فيكون الحداد القصير السريع ثلاثة أيام . وبعدها تعود المدينة اللاهية بالليل . الجادة بالنهار الى طبيعتها .!

ان أى غريب يزور المدينة يدعى الى حفلها الراقص ويكون ضيف الشرف .. فالتقاليد تقضى أن يقيموا لأى غريب يزورهم حفلة راقصة . فاذا لم يزرهم أحد . فانهم يقيمون حفلة راقصة لانفسهم أيضا . !!

وفى غات .. المدينة الراقصة .. تسمع أسطورة السكان الخمسة الذين أوقفوا كتيبة كاملة من الجيش الفرنسى ١٢ ساعة .. ببنادقهم العادية البسيطة وكيف قتل القائد ، وعدد من الجنود وظلت الكتيبة تنقص حتى جاءتهم الامدادات من داخل ليبيا .. وأفنوا الكتيبة كلها ..

وأسطورة ثانية .. الطائرات الماستير الفرنسية التى سقطت ببنادق البدو .. كالذباب فى قرية « ايسن » عام ١٩٥٧ .

وبلدة أخرى عجيبة .. حملتنا السيارة اليها بعد ٣٠٠ كيلو فى أعماق الصحراء . اسمها « مرزق » . قرية صغيرة بها قلعة ومقابر تركية . . وأشلاء كثيرة لضحايا الحروب التى مر عليها أكثر من قرن .!

وأخذ أحد أبناء القرية بنبش التراب ، وأخرج منهـا رأس انسان . وكأنه قد دفن بالأمس القريب . حتى آثار الطعام مازالت على وجهه .!

ان الرمال تحفظ الجثة كما لو كانت محنطـة وتأكد لى أن الأرض التى أدوس عليهـا مقبرة كبيرة .. وان حروبا كثيرة من أجل الحياة ، خاضها البدو فى داخل الصحراء بعيدا عن الحيـاة ذاتهـا .!

وفى مرزق شىء آخر عجيب .!

هو وضع المرأة ..

المرأة هى سيدة الأسرة .. و « رجل » البيت بمفهومنا .

فالزوج لا يعرف النقود ، ولا يستطيع أن يميز قطعها المختلفة .. بينما تتولى المرأة الانفاق على الأسرة .. والحسـاب ، وكل شىء !

قال لى أحد أبناء مرزق ان ذلك يرجع الى تقليـد الزواج عندنا .. ففى ليلة الدخلة ، بعد ان ينفرد العريس بعروسه .. يحاول

كل منهما ضرب الآخر بيـده والسـيد هو الذى يضرب أولا .. والمرأة غالبا تضرب أولا .. لأن الرجل يريد ذلك !.

وسبب آخر .. هو طبيعة الحياة القاسـية فى الصحراء .. الرجل يعمل .. ويعمل .. وعلى المرأة أن تتولى أى شىء ما عدا العمل فى الزراعة أو الرعى !..

وفى مرزق ، أغرب سوق . انه سوق النساء ! .

السوق مبنية على الطراز العربى القديم ، ولها قصة ، فقد كان مرزق ملتقى القوافل بين الجنوب .. والشمال فى أفريقيا .. وكانت مركزا لتجارة الرق . رق الذكور . فمن أوربا كان يأتى رق الشقراوات !.

وفى هذه السوق كان يباع الانسان ضمن سلع كثيرة .. ولما حرمت تجارة الرق .. ظلت السوق كما هى خاوية .. حتى جاءت المرأة وحولته الى سوق خاص بالنساء !.

وفى قلب الصحراء .. حيث لا حياة ولا مدنية .. ولا موديلات سوف تحس أن طبيعة المرأة أقوى من ذلك كله !.

ان المرأة فى السوق قد خططت حاجبيها .. وصنعت لنفسها أهدابا صناعية .. وصقلت شعرها .. كما لو كانت قادمة لتوها من عند الكوافير ..

وبعد ظهر كل يوم تتزين النساء ، ويخرجن الى سوقهن .. وفى السوق تتم الصفقات .. عن طريق التبادل !!

والنساء يحملن مختلف السلع .. الى السوق .. فالرجل يعمل والمرأة تتولى تسويق الانتاج ! .

ممنوع على الرجل أن يدخل السوق بائعا .. انما يدخله مشتريا .!

وفى هذه الأيام بدأت النقود تطرق باب السوق ... وبدأت الحضارة تدخله .. فتفسد فيه كل شىء .. التبادل .. والمساومة .. لقد دخلت النقود بمتاعبها .!

مرزق واحدة من متصرفيات — محافظات — ولاية فزان الست ، ويسكنها ٢٠ ألف مواطن ..

وفى مرزق مستشفى به طبيب يونانى .. جاء من الشمال ليقيم فى الصحراء وهو سعيد بالحياة الهادئة قال لى أن نسبة كبيرة من السكان مصابون بالتراخوما فى عيونهم ..

— وسبب المرض يا دكتور كاند يلاكس ايليا .

— سوء التغذية أولا .. والاهمال فى النظافة ثانيا !

وقال لى الطبيب اليونانى أن فى الولاية خمسة مستشفيات أخرى ، وواحد مركزى رئيسى فى سبها و ٦٦ مستوصفا .. وأن كثيرا من الأمراض المتوطنة تعيش مع السكان ولكن أخطر منها الدرن الذى وصلت نسبته الى ٦٠٪ .

وضحك الأوربى الذى يقطع كل شهر ثلاثة آلاف كيلو بسيارته داخل الصحراء بحثا عن المرض وهو يقول :

ـ لقد استطاع الاستعمار الأوربى . أن يقنع الناس هنا . ان زيارة الطبيب معناها الموت ... وهذه النظرة تغيرت كثيرا ... أن ١٥٠ طبيبا و ١٧٥ ممرضا و ١١ ممرضة داخل الولاية لايجدون وقت الراحة من اقبال الناس عليهم .

* * *

فزان لم تتمتع بالحكم المدنى الا من عشر سنوات .. وقبل ذلك كانت محكومة عسكريا .. دائما !.

قال لى وزير الداخلية ان فى فزان قبائل .. رحل وشبه رحل .. ومستقرون .. ولكل قبيلة شيخ يتقاضى مكافأة سنوية . ويكون حلقة الاتصال بين القبيلة والمدير .. والشيخ هو الذى يتولى تسجيل المواليد لاستخراج شهادات الميلاد عند الحاجة اليها .. لا ساعة الولادة !

وقال لى مدير البوليس انه ليس للصحراء قانون خاص بها فالقانون . هو القانون فى كل مكان من فزان وغيرها . وليس فى فزان حوادث جسيمة . مرة واحدة عام ١٩٥٦ وقعت جناية قتل . شخص تباوى .. من قبائل التبو الموجودة بالسودان ، وتشاد ، وليبيا ، كان قاطعا للطريق ، اعتدى على قافلة ، وقتل أحد أفرادها .. وحكم عليه بالاعدام !.

ولم يقل لى مدير البوليس شىء عن الكثيرين الذين أعدموا فى فزان لأسباب سياسية ولا عن الذين وضعوا داخل سجن « سبها » الرهيب .

المجتمع الذى يعيش فى الصحراء لايعرف القتل ولا الجريمة وكل مشاكله خناقات بسيطة سرعان ما تتلاشى فى جلسات عرفية صغيرة لايحس بها أحد . !

ومع ذلك فان ولاية فزان من أكبر ولايات ليبيا .. ان مساحتها ٨٠٠ ألف كيلو مربع ، وسكانها ١٠٠ ألف مواطن .

وهى ترتبط بولاية طرابلس بخط طائرات مرتين كل أسبوع، وأتوبيس يقطع المسافة فى ٢٠ ساعة .. وكان بين مشروع السنوات الخمس الذى يقوم به مجلس الأعمار بانشاء مطار فى سبها لتكون حلقة اتصال بين دول أفريقيا فى الجنوب .. وبين أوربا ..

والى جوار سبها .. قرية صغيرة اسمها « جديد » لقد كانت العاصمة القديمة .. قبل أن تقام سبها .. وفى « جـــديد » .. وضواحى سبها صناعات السجاد ، والتمور ، والقماش والبلاط .

وفيها عدد من المدارس .. وصحيفة واحدة حكومية .. هى صحيفة فزان .

وفيها مشروعات جديدة عديدة ..

❊ ❊ ❊

كنت فى فزان ... أبحث عن البترول ...

ولكنى لم أجده ..

أعمال التنقيب تتم فيها ببطء شـــديد .. حتى تكاد تكون متوقفة .. خمس شركات تقوم بالتنقيب .. ومع أن بدايه التنقيب كان فى برقة الا أن أول بئر أنتج هو بئر العطشان بفزان ..

وزارت فزان بعثات عملية أمريكية للبحث عن الحديد ..
وأسفرت الأبحاث عن أن فزان بها مناطق كبيرة غنية بالحديد ..

ان نشاط التعدين بالولاية .. سوف يقضى على مشكلتها الكبرى .. مشكلة هجرة السكان منها الى الولايات الأخرى .. حيث العمل فى البترول .. والشركات .. وحيث المدينة والحياة الصاخبة .

وأخيرا ..

شيئان لن أنساهما أبدا لفزان ..

النغم الشرقى الأصيل .. ففزان منبع الفنون الشعبية فى ليبيا كلها .. وكل أغنية ليبية لابد أن تنتهى بموال فزانى أصيل ..

والشيء الثانى .. هم عشرات المصريين الذين تركت قلبى معهم هناك .. بعيدا عن بلادهم .. وفى قلب الصحراء .. وهم يساهمون فى خلق الحياة الجديدة .. لآلاف الأشقاء الذين يعملون من أجل مستقبل أفضل .. وحياة أكثر رغدا وأكثر تعقيدا ..

القبلة بلا خوف

الرجال محجبون ، والنساء سافرات ..

والقبلة واضحة يتردد صداها دون خوف او خجل... انه الحب .. الانشودة التى تجرى فى شرايين الليالى الدافئة .. وكل ليلة هنا دافئة ..

وفى ظلال الحب يعيش مجتمع كامل داخل الصحراء الافريقية الكبرى بعيدا عن الحضارة والعمران ...

مجتمع يحب ولايكره .... يتزوج، ولايطلق.. يتعبد ، ولا يصلى .. مسلم .. لايتكلم العربية.!

مجتمع المرأة السافرة فيه تمضى أيامها عبدة للرجل المحجب ..وتعيش فى انتظار من يحررها حتى بعد أن تتزوج ...

الصحراء واسعة لاتعرف الحدود ، ولا القيود .. والرمال تجرى مع الريح تطوف بلدان كثيرة دون أن يعوقها شيء ..

وفى هذه الصحراء الواسعة ، وبعيدا عن كل مقومات الحياة الحديثه التى نعرفها ، يعيش ملايين الناس فى قبائل منهارة متناثرة تلهث وراء المجهول ، بعضها ينتظر دموع السماء ، يعيش على الأمطار ، وبعضها يعيش بلا هدف وراء مجموعة من الأغنام تقوده الى حيث لا يعرف .!

ولقد عشت وسط نوع جديد من هؤلاء البشر ، قبائل متعددة تعيش فى أعماق الجنوب من ليبيا ، والجزائر ، ومراكش ، وتشاد والنيجر .

ألف وخمسمائة كيلو من طرابلس .. وبعدها تجد هذه الحياة فى ولاية فزان .

ان أول هذه القبائل تلتقى به بعد خمسمائة كيلو من سبها عاصمة الولاية ..

القبائل اسمها الطوارق ..

و٧٠٪ من سكان موريتانيا من الطوارق ..

وفى الجزائر ٣٠ ألف طارقى ..

وفى النيجر ٢٠٠ ألف ، حتى أن واحدا قد أصبح وزيرا ..

وعدد الطوارق فى ليبيا ٢٠ ألف تضمهم ثلاث قبائل بنسبة هى « أراغن ، ومنغاتن وكلثوات وغلتوات » ولهم حياة خاصة بهم يحترمها الجميع ، ولو بدت هذه الحياة غريبـــة فى ملامحها عن الحياة فى مختلف ولايات ليبيا ومدنها ..

وحياة الطوارق قبلية بحتة .. لها مساوىء كل الحياة القبلية ، ومميزاتها اذا كان لهذه الحياة مميزات ..

ولا شك أن المشكلة القبلية تعيش فى بعض البلدان العربية ، ولكن هذه المشكلة لا تبدو حادة ، ولا واضحة فى بلد كليبيـــا ولعل وراء ذلك عوامل عديدة تحتاج الى دراسة مستفيضة . . فالحياة القبلية فى ليبيا تعيش بعيدا .. داخل الصحراء ..

صحيح أن هذه القبائل لها زعامات خاصة بها ..

وصحيح أن زعامات القبائل لها شأن هام ، ونفوذ قوى .. ولكن حضارة الصناعة ، والبترول احداها ، بدأت نفتت الحجر الأخير فى صرح تماسك النظام القبلى ..

ان قبائل الطوارق فى ليبيا قد قسمت نفسها الى عدة قوافل ، كل قافلة متجانسة ، متقاربة تعيش معا .. حياة واحدة مختلطة ، تسكن معا فى خيام جلدية ، أو وبرية ، ولكل قافلة قائد .!

* * *

والطوارق مولعون بالرفص والعناء ..

ان رقصهم بدائى ، وغناؤهم مواويل حزينة تختفى وراءها كل متاعب حياتهم .. وما أكثرها فى قلب الصحراء حيث لا شىء سوى الرعى .. رعى الجمال ، والجياد ، وتبادل التجارة مع القبائل القادمة من الجزائر ، والنيجر ، وتشاد .!

وتبادل التجارة جزء هام من حياتهم ، طوارق تشاد والنيجر يأخذون من ليبيا الملابس الحريرية ، والمنسوجات والشاى والسكر والمصنوعات الجلدية ، ويحصلون على بيض النعام ، وريشه ، وعلى الحراب والخناجر ، وأشياء كثيرة قادمة من الجنوب .!

وفى منتصف كل شهر عربى ، وفى الليالى المقمرة يتم اللقاء فى الوديان كل واد له اسم ، وكل واد له تجاره الذين يلتقون فيه ، وعند ما تلتقى القافلتان فانهما تمضيان الليلة معا .. ليلة ساهرة ساهرة قبل أن تعود كل منهما الى مكانها لتبدأ حياتها من جديد فى انتظار الليلة المقمرة ، حيث يتم اللقاء ..!

ان بعض العادات العربية الأصيلة ما زالت تعيش حتى اليوم مع الطوارق ، وفى مقدمة هذه العادات الكرم ..

وتقاليد الطوارق تقضى بأن يستضيفك الواحد منهم ثلاثة أيام كاملة قبل أن يسألك عن اسمك ، ومهنتك ، وبعدها يتحدث معك .. ويسألك عما تريد ، وعن وجهتك ، وهو يمنعك خلال الأيام الثلاثة من أن تشرح له مطلبك .. أو طريقك الذى تريده !

والطوارق مسلمون .. لا يعرفون اللغة العربية .

فهم تتكلمون لغتين .. السواحلية ، والطارقية .. وهى لغة خاصة بهم تكتب بحروف صينية من اليمين الى الشمال ..

والمذهب الاسلامى الذى يتبعه الطوارق هو المذهب « الأباضى » ولكى نعرف هذا المذهب يجب أن نعود الى الوراء ، الى العصر الاسلامى الأول .. أيام على بن أبى طالب ، والخلافات التى نشبت بينه وبين معاوية ، والتى بدأت بالتحكيم ، وانتهت بالحروب حيث أريقت فيها دماء المسلمين بأيدى اخوانهم المسلمين .!

وانشقت فئة من الناس على « سيدنا على » أطلق عليهم الخوارج .. وظل الخوارج شوكة فى جانب على ، ثم معاوية بعد ذلك ..

وانقسم الخوارج الى فرق كثيرة من بينها فرقة « الأباضية » نسبة الى رئيسهم عبد الله بن أباض التميتمى ..

و« الأباضيون » من أقرب فرق الخوارج الى الاسلام ، انهم على عكس فئات من الخوارج ، يبيحون الزواج من غيرهم ، ويسمحون لغيرهم بالارث .. وهم متعصبون للاسلام .!

السؤال الذى يلح على هو :

ما هى صلة هذه القبائل التى تعيش بعيدا ، بعيدا جدا داخل الصحراء بالحكومة !

الطوارق لهم ممثلون فى المجالس النيابية المختلفة فى ليبيا .. مجلسى الشيوخ ، والنواب .. والمجلس التشريعى لولاية فزان ..

ومن بينهم المتصرفون ـ المحافظون ـ ولهم أيضا مراكز تجمعهم حيث يوجد مديرون يرعون مصالحهم ويحلون مشاكلهم ..

وفى « غات » مثلا متصرف من الطوارق منذ أربعين عاما ، وقد حاول الايطاليون أن يفصلوه ، ولكنهم خشوا بأسه .. وكذلك الفرنسيون ، وظل كما هو .. حتى اليوم .. وسيستمر الى أن يموت . !!

ولقــد سمعت أنه قد أعدت لهم مدارس فى مراكز تجمعهم لتعلمهم اللغة العربية ، يتركون فيها أولادهم الذكور حتى يعودوا من جولاتهم فى الصحراء ، وأن هناك أيضا مراكز علاجية بسيطة تداوى المريض منهم .. !!

ومجتمع الطوارق واحد من المجتمعات القبلية . !

فيه أقلية تملك ثروات طائلة ..

وفيه أغلبية تعمل فى رعى الغنم .. تقوده الى حيث لا يعرف .. ولا يدرى .!

وليس فيهم متوسطو الحال ، الذين يصارعون لكى يقفزوا ويصبحوا أغنياء ..

والثروة هنا .. هى فى ملكية الحيوان فقط .!

وبين الطوارق من يملكون قطعانا من الجمال قد تصل الى عدة آلاف .. والجمل ثمنه ٧٠ جنيها ..

والرجل المتواضع ، الذى يقولون انه يصارع لكى يصبح غنيا ، يملك ألف جمل ، يعنى أن ثروته سبعون ألف جنيه فقط !!

ونوع واحد من الجمال هو الذى يشدهم اسمه « المهيرى » وهو جمل سريع الحركة ، يجرى ألف كيلو فى اليوم الواحد .!

وللطوارق سلطان ..

سلطان « محلى » خاص بهم ..

ليس له حكومة ، وليس له جنود ..

ولكنه قوى .. له حراسه .. وله قوانينه التى يطبقها ، النابعة من التقاليد والعرف ..

وسلطان الطوارق لا يعارض الحكومة ، ولكنه رمز ..

انه قائد كبير ، لجماعة كبيرة من الناس تعيش فى الصحراء ..

قائد .. منتخب .. اشترك كل الطوارق فى انتخابه انتخابا حرا ليس مباشرا .. لأن الذين يشتركون فيـــه هم زعماء القبائل فقط .!

ويعيش فى قرية « أزجر » على الحدود الجزائرية الليبية ، وعند ما يموت السلطان يجتمع زعماء القبائل كلهم فى مكان اسمه « ايسلى » وهو صخرة صماء عالية ، ويتم فى هــذه الجلسة انتخاب السلطان الجديد ، ويسلم له الطبل علامة على أنه قد أصبح السلطان ..

واجتماعهم بجوار الصخرة الصماء يشير الى أن ما اتفقوا عليه ، جامد كالصخرة الصماء ، لا يمكن الرجوع فيه ..

وذات يوم قريب .. منذ أقل من ربع قرن ، كان سلطان الطوارق امرأة .!

كانت السلطنة تورث عندهم عن طريق الأم .! وكان لهم فى مدينة « غات » متصرف اسمه « السيد الحسينى » والده كان سلطانا للطوارق ، وعند ما مات سلم الطبل الى خالة السلطان لأنها أكبر سيدة سنا فى العائلة .!

وتغير الوضع الآن ، لم يعد منصب السلطان بالوراثة .. بل أصبح بالانتخاب ..

وبقيت الوراثة لزعامة القبائل فقط .

* * *

الطوارق لم يسلموا من مؤامرات الاستعمار .!

والقصص التى تروى فى هذه المنطقة ، عن ألاعيب الاستعمار ، ومحاولته استغلال وجود الطوارق فى مناطق أخرى من الوطن العربى كثيرة ، ومتعددة .!

منها مثلا ..

وجود الطوارق كان سببا فى عناد كبير بذله المفاوضون الجزائريون فى مفاوضات « ايفيان » عند ما تعرضوا لوضع صحراء الجزائر الكبرى ، وتمسكت بها فرنسا !

أدركت فرنسا أهمية الصحراء الأفريقية الكبرى عقب الحرب العالمية الأخيرة ، وبداية الاكتشافات البترولية والمعدنية ..

ان صحراء أفريقيا غنية بما تختزنه فى أعماقها من ثروات ضخمة !

وكان خبراء فرنسا يخططون للمستقبل .. ان شمال أفريقيا سوف يتخلص من نفوذهم ذات يوم .. والصحراء الكبرى وما فيها من موارد ضخمة ستضيع على فرنسا ..

و .. جاء الحل ..

الصحراء ليس بها سكان مقيمون بصفة دائمة ، فلماذا لا يستقر بها نوع معين من السكان ، تضمن فرنسا ولاءهم ، وتكون لهم مملكة أو سلطنة .. دولة .. دولة على أية صورة من الصور وبعدها تضمن فرنسا ، مكانا لأكثر من قدم داخل الصحراء ، لسنوات عديدة ، تمتص بواسطتها كل ما فى الصحراء ، وتسيطر من خلالها على الصحراء الأفريقية .. وربما يحاول أن يتسلل منها النفوذ الفرنسى الى الدول المستقلة التى طردت الاستعمار الفرنسى ..

هكذا خطط ، وفكر خبراء فرنسا ..

وخرجوا بمشروع انشاء سلطنة للطوارق ..

كان المشروع يهدف الى اقتطاع أجزاء من الصحارى المغربية والجزائرية والاستوائية ، وفى هذه الدائرة تقام سلطنة للطوارق .. تظل خاضعة للنفوذ الفرنسى !.

وعند ما جاء التنفيذ ذابت الفكرة نهائيـا ، تحت اصرار الطوارق آلا يخضعوا لأى مشروع وافدا عليهم من «الفرنسيس» فضلا عن أن كل الدول أصرت على أن تحتفظ بسيطرتها الكاملة المطلقة على أرضها .!

فى المغرب دارت هذه المحاولات ..

وفى ليبيا تكررت المحاولات ..

ولكن كل هذه المحاولات لم تنجح !

وظل الطوارق كما هم ..

يعيشون فى دول مختلفة ، ويدينـون بالولاء للدولة التى يعيشون فيها ، ويحسون أنه لا يفصلهم شيء عن زملاءهم فى البلاد الأخرى رغم الحدود التى لا تعوق لقاءهم ..

وكل هذه الدول تحترم لقاء الطوارق ، وتسمح لهم بحرية الانتقال أو التجول للالتقاء بزملائهم ..

انهم لا يعرفون جوازات السفر ، ولا تأشيرات اللقـاء .. ينتقلون .. وحريتهم مكفولة .. يتجولون فى البـلاد دون أن يعترضهم أحد على حافة الحدود ليسألهم من هم ومن أين . . والى أين ..

الوطن العربى هو وطنهم.. لا فواصل ، ولا حواجز ولا حدود.

وهذه هى متعتهم الأولى فى رأيى .

* * *

فى هذا المجتمع الذى يعيش فى أعماق الصحراء الأفريقية ، فيه أشياء غريبة تحتاج الى تأمل ..

الرجل محجب .. والمرأة سافرة ..

ولقد اختلف الكثيرون من الذين التقيت بهم فى تعليل هذه الظاهرة ..

بعضهم أرجع هذا اللثام الى الحروب الطويلة التى خاضها « الطوارق » .. حيث كان الرجل يحتاج دائما الى اللثام ليخفى وجهه عن خصمه فى الحرب ..

ولم تكن المرأة تحارب .. لذلك فهى لم تلجأ الى اللثام !

والبعض الآخر أرجعه الى أن الرجل يسير فى الصحراء العارية ، مسافات طويلة . و فى الصحراء رياح وعواصف .. ورمال ناعمة .. وكانت الطريقة التى فكر فيها الطوارق فى أن يحموا أنفسهم من ذرات الرمال المتطايرة ، ومن الرياح الباردة .. هى اللثام ..

ولو عرف الطوارق « النظارة » .. فى ذلك الزمن البعيد ، لما تأخر الرجال فى استعمالها امعانا فى التنكر والوقاية من الرمال .. ووضع المرأة يختلف ولا شك ..

فانها لا تخوض الحروب ، ولا تسير المسافات الطويلة فى الصحراء ..

فهى فى خيمتها دائما .. لا تحتاج الى اللثام ! ولذلك أصبح الرجل محجبا ، وأصبحت المرأة سافرة !

هذه هي وجهات النظر التي ترددت حول حجاب الرجال الطوارق .. ذلك الحجاب الذي يصعب عليك أن تتعرف على الرجل .. او على شخصيته .!

كنت أقف في أحد المحلات التجارية الصغيرة في سبها ، وجاء شخص محجب يبيع خنجرا مطعما بالصدف .. وظننت أنها امرأة تلك التي تبيع الخنجر .. ولم أعرفه رجلا الا بعد أن استمعت الى صوته وهو يساوم !!

والحقيقة أنها كانت مفاجأة ضخمة لي ..

فقد كنت قد تركت ورائي في طرابلس امرأة محجبة ! وجئت الى سبها لأجد رجلا محجبا . !!

وزالت دهشتي يوم سافرت الى الصحراء ، وعرفت قصة الطوارق .!

ان حجاب الرجل ، وسفور المرأة ، جزء متمم لحياة الطوارق ، يحرصون عليه جميعا ، مهما بلغت مراكزهم ومهما سافروا الى الخارج .!

فالرجل الطارقي اذا أصبح وزيرا مثلا وعاش في المدينة ، بل وقدر له أن يسافر الى أوربا ، فانه يسافر محجبا ، ويعيش في المدينة محجبا أيضا ، وكل الطوارق الذين يعيشون في بلاد أفريقيا محجبون .. متمسكون بالحجاب .!

وحجاب الرجل ليس هو العادة الوحيدة الشاذة عند الطوارق .. بل كثير من عاداتهم يبدو ــ بالنسبة لنا على الأقل ــ شاذا ..

وكل عادة تخفى وراءها رواسب كثيرة قديمة .!

الخطبة مثلا .!

انها تتم على الطريقة الأوربية الحديثة ، ولكنها ليست تقليدا لما يحدث فى الخارج .!

الآباء ، والأجداد يجدون أنفسهم قد تزوجوا بنفس الطريقة .

وكل زواج يتم .. هو زواج حب ..

لا اكراه فى زواج ، ولا ضغط أو ارهاب ، شأن المجتمعات القبلية ..

الشاب له حرية الاختيار . والفتاة لها أيضا نفس الحرية .. والذين التقيت بهم ، وتحدثت معهم عن الزواج ، أجمعوا على طريقة واحدة .. تزوجوا بها جميعا ..

الشاب يتعرف على فتاته ، ويكون معها علاقة بريئة تستمر عادة أربعة أو خمسة شهور ، فى أثناء هذه الفترة يمضى الحب قويا كالصحراء ، واضحا كالنهار ، يعرفه الأب ، والأم . فالفتاة هى التى تشترك فى اختيار زوجها ، وتخطر أهلها ..

وفى كل ليلة يذهب الشاب الى خيمة فتاته ، ويصحبها الى ربوة ، أو منطقة منعزلة بعيدا عن العيون ، ويظل يسمر معها الى آخر الليل ..

وتعود الفتاة الى أهلها .. يتركها الشاب عند باب الخيمة ، ولا أحد يعجب ، ولا أحد يسأل .. انها مسألة عادية جدا ، تتم فى كل خيمة ، وفى كل مكان فيه طوارق .!

لا خجل من الحب أمام العائلة بل مصارحة كاملة ..

والفتاة تتصرف مع فتاها بحرية كاملة مطلقة .. وكذلك يفعل الشاب .. ومن العجيب ان تظل العلاقات بينهما نصف بريئة بعد ذلك كله !

ان أقصى ما يصل اليه الشاب مع فتاته ، هو ان يداعبها .. أو يقبلها . !

والطوارق يحترمون حرية القبلات .. اما بعد ذلك فلا يحدث شىء . !

مرات قليلة تلك التى خرج فيها الفتى والفتاة عن حدود المتعارف عليه .. واخذ الفتى أكثر من نصيبه الذى يحترمه المجتمع وفى هذه المرات القليلة كان عقاب الشاب غريبا ..

الموت !

الشاب الذى يتورط فى ارتكاب حماقة مع فتاته ، ولا يتمالك أعصابه ، فانه بنفسه يفضل الا يواجه المصير ، انه يهرب ولا يعيش بين طوارق ليبيا مثلا ، اذا كان قد ارتكب حماقته فى ليبيا .. بل

يهرب ليعيش مع طوارق بلد آخر .. وعندما ينكشف امره بينهم فانه يتركهم أيضا .. يصبح منبوذا من شرف الانتساب الى الطوارق

ونادرا ما يحدث ذلك فبالرغم من ان المجتمع مغلق ، الا انه بالنسبة للشباب مفتوح ، يعيش فيه الفتى بجانب الفتاة .. ويصادقها ، ويتحدث معها دون خوف أو خجل ، وقد يكون فى ذلك اعلاء كبيرا لغرائزه ..

ليخطبوا له الفتاة التى اختارها .. ويحددوا المهر ..

والمهر يتبع الطبقة الاجتماعية للفتى والفتاة . .

الطبقة العالية مهرها ٧ « نوق » ، وجمل ذكر ..

والمهر عند الطبقة المتوسطة حوالى ٣٥ رأس ماعز ، ودابتان : حماران ، أو بقرتان .. خلاف الهدايا الأخرى .

أما الطبقة الفقيرة ، فالمهر ليس مشكلة عندهم .. ان أهم ما يحرصون عليه ، هو الالتقاء العاطفى .. أن يتفق الفتى والفتاة .. وبعدها ليس هناك عقبات ، ولا مشاكل !

ولا تعلن الخطوبة قبل عدة مساجلات ، يتبارى فيها كل من الطرفين فى وصف نفسه !

أهل الشاب يتكلمون عن أصله .. عن جدوده ، وآبائه .. عن

القبيلة التى يعيش فيها ، وما حققته ، وعن تاريخها الطويل المحفوظ بما فيه من امجاد ثم يتكلمون عن العريس وحياته ، وما فيها من قصص شجاعة ، أو تضحية ، أو بطولة !

وأهل الفتاة يردون عليهم . ويروون كل شيء عن أنفسهم كلما ذكر أهل الشاب حديثا عن الشجاعة ردوا عليهم بحديث آخر عن الشجاعة واذا تحدثوا عن الكرم أجابوهم بحديث آخر الكرم وهكذا .

والزواج لا يسجل فى ليبيا كلها ، وانما يسجل الطلاق فى المحكمة !

وفى القبائل تكتفى باشهار الزواج فى القبيلة ، وتنتهى المراسيم الخاصة بالزواج .. ليبدأ الاحتفال به .

زواج الطوارق لا يحتاج الى تسجيل . !

انه نوع غريب من الزواج ..

هناك قبائل كثيرة تختلف فيها عادات الزواج ، وبعضها تجنح هذه العادات نحو أشياء بعيدة عن الخيال ، والتصور . ولكن زواج الطوارق لا يكون واحدا من هذا النوع الغريب فحسب ، بل ان تقاليده تعتبر من أغرب تقاليد الزواج ، حتى أن كتبا كثيرة قد أخرجت فى أوربا عن العادات ، وكان زواج الطوارق واحدا من أبرز هذه العادات الغريبة فى العالم أجمع ..

حفلات الزواج تستمر عادة عشرة أيام ..

ثلاثة أيام قبل الزفاف ، وسبعة أيام بعده .. وأحيانا تطول مدة هذه الحفلات ولكنها لاتنقص أبدا . !

وما يدور فى ليلة الزفاف أشبه بالأساطير القديمة ، التى يصعب على العقل أن يهضمها الآن بسهولة .

الطوارق يعيشون فى خيام متلاصقة .. وعادة لا تبعد خيمة أهل العروس عن خيمة العريس سوى أمتار قليلة لا تصل الى العشرين مترا ، ذلك لأن معظم الزيجات تتم داخل القبيلة الواحدة ..

هذه المسافة المتقاربة جدا لا تمنع الموكب الذى يخرج من خيمة العروس أن يمضى فى طريقه الى الخيمة المجاورة ، ست ساعات مثلا !

عشرون مترا، ، تقطع فى ست ساعات ، كلها رقص ، وغناء .. يشترك فيه كل أفراد القبيلة ، وأقاربهم .. وكبار الضيوف من القبائل المجاورة ، والتى بينها وبينهم علاقات !

وعندما تصل العروس الى باب خيمة زوجها .. يجلس الموكب كله .. كل الناس تجلس الى أن تقف العروس ، وتعلن أنها قد اختارت نائبة عنها ، يسميها الذين يعيشون فى المدن هناك « محامية » ..

ويقف الزوج ليختار « محاميا » هو الآخر .!

وتبدأ المعركة بين محامية العروس ، ومحامى العريس ..

ويبدأ السجال بينهما . !

المحامية تسأل أسئلة غريبة ، وعلى المحامى أن يجيب عن كل سؤال .. انها معركة لابد أن ينتصر فيها طرف من الطرفين ..

المحامية تسأل مثلا عن أصل العائلات ، وتاريخ الطوارق ، وتاريخ الجمال والنياق الموجودة فى البادية .. ثم توجه الى محامى الزوج ألغازا تطلب منه أن يحلها !

وكل الناس شهود لهذه المعركة ، التى تحاول فيها وكيلة العروس ان تنتصر ، ففى انتصارها ، انتصار للزوجة ، ولعائلة الزوجة !

ومحامى العريس يحاول أن يثبت جدارته ، وأن يتفوق عليها !

وتمضى ساعة .. وبعض ساعة ، والناس لا يملون من سماع هذه المرافعات ، بل يرقبونها فى اهتمام ، فهذه المحاورة تكون حديث البادية لمدة ربما تصل الى سنوات ، خاصة واذا حدث فيها شيء غريب أو نوع نادر من الألغاز والاحاجى .. أو أسئلة يصعب الاجابة عليها ، وتظل هذه الأسئلة تتردد مقرونة باسم العروس التى ألقتها .. والعريس الذى عجز عن الاجابة عليها ..

وتنتهي المرافعة .. بفوز واحد من اثنين ..

اذا انتصرت المحامية فانها تفرض شروطها على المحامي .. وشروطها هي أن يشترى لموكلتها رداء .. زجاجة عطر .. أى شيء مجرد غرامة رمزية ، تحمل وراءها معنى كبيرا .. ان هذه المصاهرة ليست عملا سهلا ، فقد انتصرت عليه المرأة ، وأرغمته على تنفيذ شروطها !

ويعد محامى الزوج بالتنفيذ .. و .. تدخل العروس خيمتها !

وأحيانا لا يعجز محامى الزوج عن الدفاع ، وعندها تكون كارثة .. ان العروس ترجع الى بيت أبيها ، ويتأجل الزفاف الى الليلة التالية .. لأنها ليست متفوقة ..

وفى الليلة التالية يبدأ الزفاف من الخيمــة الأولى .. بنفس البطء المميت ، وبنفس الموكب .. وبنفس المدعوين الى أن يصل حتى باب الخيمة .. وتعقد المحكمة ..
المحامية هى نفسها .. والمحامى هو نفسه ..

والمحكمة .. هم كل الحضور ، يستمعون ، ويحكمون !

ولا بد أن تنتصر المحامية فى النهاية ، ولا يمكن لمحامى الزوج أن يظهر عجزه ، وبلاهته بسهولة ، فالمحكمة جادة ، مقدسة لابد

أن ينهزم هزيمة حقيقية جادة .. ولا بد للمحامية ان تفرض شروطها .. قبل أن تدخل موكلتها .. الخيمة !!

ان متاعب جديدة تنتظر العريس فى الخيمة !

العروس ليست وحدها .. انها تائهة وسط مجموعة من صديقاتها .. وهى متنكرة وعلى الزوج أن يخرجها لأول وهلة من بين الحشد الكبير من الصديقات .. فاذا لم ينجح فى اخراجها فور دخوله الخيمة ، فانها تخرج وتعود الى أهلها ، ولا ترجع اليه أبدا !

ان الزواج يكون قد وضع له نهاية غير سعيدة .. يموت فى مولده !

فالزوج الذى لا يعرف عروسه التى أحبها ، وتزوجها عن رغبته من النظرة السريعة ، لا يكون جادا فى حبه .. ولا تكون الفتاة جديرة بالزواج منه . !

ويحرص الزوج دائما على أن ينجح ، وألا يضيع حبه فى لحظات ويجرف معه ما اتفقه على هذا الزواج .

وعادة ينجح العريس الذى يدخل خيمته متيقظا فى معرفة عروسه . !

ولكن متاعبه لا تنتهى عند هذا الحد أيضا . !

ان معرفته بزوجته بداية جديدة لمتاعب لا حصر لها . !

فالصديقات ينتظرن حتى يتعرف عليها العريس ، ثم يبدأن فى

الخروج .. ويذبن وسط الصحراء فى خيامهن .. وتذوب معهن العروس . !

وعلى الزوج أن يبدأ فى البحث عنها . !

لقد أجرت اختبارا لقوة ملاحظته ، وفاز فيه ..

وفى هـذه المرة تختبر ذكاءه ، ومدى اسـتعداده لتحمـل الصعوبات فى سبيل البحث عنها .. واعادتها الى عشه . !

وعندما تختفى العروس ، فانها لا تذهب الى خيمة أبيها ، ولا الى خيام أقاربها .. كما أنها لا تصاحب صديقاتها فى الذهاب الى خيامهن .. انها تتوه فى الصحراء .. هى نفسها لا تعـرف بالضبط الى أين تذهب بل أنها تترك نفسها تسير ، وتسير ..وتسير والعريس فى الخيمة الى أن يخرج للبحث عنها .

وكثيرا ما تتوه الزوجات بالأيام !

ولقد روى لى أحد الأشخاص أنه فى الأسبوع الذى كنت أزور فيه فزان ، تاهت احدى الزوجات ، وأمضت فى الصحراء يومين كاملين تائهة ، والعريس وحده هو الذى يبحث عنها وعندما وجدها ، كانت على وشك أن تموت من الجـوع ، والعطش والارهاق . !

ويتمكن الزوج غالبا من اعادة زوجته الى خيمته .. لتمضى معه الليل .. وفى النهار تختفى .

انها زوجته طوال الليل ، حتى اذا ما بدأ الظلام يتسلل ، وينسحب امام ضوء النهار الأبيض ، فانها تنسحب هى الأخرى ، وتتسلل ، الى خارج الخيمة ، ولا تعود اليها الا مع جيوش الظلام !

انها زوجة فى الظلام فقط .. وممنوع عليها أن تكون زوجة فى وضح النهار .!

انها فى النهار تابعة لأبيها ، وفى الليل تابعة لزوجها .! شروط الزواج تقضى بأن تظل المرأة تعيش فى بيت زوجها كل ليلة لمدة أسبوع ، على أن تعود الى أسرتها الأصيلة فى النهار ..

وعندما ينتهى الأسبوع ، تنتقل نهائيا الى خيمة زوجها .

وبانتقالها الى خيمة زوجها تبدأ حياة جديدة ..

الزوجة تعيش مع زوجها فى خيمة واحدة ، ولكنها ليست تابعة له ، وليس له سلطة عليها ، ولا رأى ..

ان له حقا واحدا عليها . هو حقه كزوج فقط ..

عملها كله ، ودخلها اذا قدر أن يكون لها دخل ، وتصرفاتها .. كل تصرفاتها خاضعة لسلطان الأب ونفوذه . وليس للزوج عليها أية حقوق . . !

كل ذلك لأنها عبدة للرجل الذى رباها ، ونشأها .. عبدة لأبيها ..

نعم .. لقد تزوجت .. ولكن الزواج لم يحررها ..
الزواج نقلها من خيمة الى خيمة فقط ..
والأب ما زال له كل الحقوق الأخرى عليها ..

ومطلوب من الزوج أن يذهب الى أبيها ليتفاهم معه كيف يحررها ..

وطريق تحرير الزوجة معروف ، هو أن يدفع لأبيها تعويضا نظير أخذ ابنته ، والآباء يدققون عادة فى هذا التعويض . ! بالرغم من أنهم يكونون قد حصلوا على المهر الذى يريدونه ..

فان الأب يطلب مبلغا من المال ، أو عددا من الجمال والحمير والماعز نظير تحرير ابنته ..

وأحيانا يعجز الأزواج عن تحرير زوجاتهم ، وتمضى بهم الأيام يعيشون مع زوجة لا سلطان لهم عليها .. ويتصرف فيهن الآباء وفق سلطانهم ، فيأمرون الزوجة بألا تذهب الى زوجها الا فى الليل فقط — وهذا مايفعله غالبية الآباء — وتعود الى أبيها طوال اليوم .. ولا تعيش مع زوجها الا فترات اللقاء بالليل ..

والمشكلة الحقيقية التى تواجه الزوج هى عندما يعتزم الأب أن يسافر أو يغادر المكان ، جريا وراء الماء ، أو الكلأ .. أو الأغنام ، فان الزوجة عندئذ تتبعه ، وعلى الزوج أما ان يكون تابعا لأبيها هو الآخر ، وأن يجرى وراء زوجته .. أو يستقر مكانه ، ويترك زوجته تســافر مع أبيهــا انتظارا لتدبير نفقات تحريرها .. أو لعودتها مع أبيها ، واكتفاء بلقاء المساء !

وقد تنجب الزوجة ، ويصبح لها أكثر من طفل .. ولكنها مع ذلك لم تتحرر .. ويظل أولادها تابعون لها .. غير أحرار هم الآخرين الى أن يأتى الأب ويحرر الأم أولا !

التقاليد تحيط الناس بسياجها الحديدى ، بحيث لا يمكن التخلص منها أو التحايل عليها .

وعيون كل أفراد القبيلة ترقب تصرفات الأفراد ، وتعتبر كل من يخالف التقاليد خارج عليها ..

والمرأة فى هذا المجتمع الغريب ، ليست هى « العبدة » الوحيدة ! فكل الناس هنا عبيد للتقاليد .. فهى أقوى منهم .. من تفكيرهم المحدود ، ومن عاطفتهم .. ومن آمالهم ورغباتهم أيضا . فهى الحاكم الأصلى ، الذى يحكم علاقات الناس ، والأفراد وسط القبائل .. وما أبطأ حركة التقاليد عندما تحاول السير ، وسط مجتمع مغلق تحيط به الصحراء من كل مكان .. ويستيقظ فلا يجد حوله الا أشخاصا أكثر منه عبودية لهذا الكائن الممسوخ .. التقاليد ..

أين تقف هذه المرأة السافرة ، التى تمضى حياتها فى انتظار أن يحررها الرجل المحجب ..

ما هو مركزها فى الأسرة ، وزيها ما هو شكله ..

هناك ملاحظة هامة جديرة بالتسجيل !

المرأة الطارقية .. أكثر من جميلة ..

والذين يرونها لا يمكن أن يتخيلوا أن امرأة بهذا الجمال ، والاناقة تعيش بعيدا جدا عن الحضارة .. وسط الصحراء القاحلة الموحشة ..

وشهرة جمال المرأة الطارقية ، تفوق شهرتها بالبسالة والشجاعة !

والذين يسجلون جمالها ، يسجلون فى نفس الوقت شجاعتها وبسالتها .. ومرات ومرات تروى الحكايات كيف وقفت النساء الى جانب الرجال ، يخضن المعارك فى عنف وقسوة ..

وحتى الآن ، ما زالت المرأة تؤدى دورها كاملا .. الرجل يسافر ، ويرحل ويتجول ، ويتركها وحدها فى الصحراء الواسعة لغامضة ، بصحبة أطفاله .. وهى مسئولة عن حمايتهم ، وحماية فسها .. وحماية امتعة القبيلة كلها .. ومسئولة أيضا عن حماية الشيوخ ، والمسنون الذين تعجزهم الشيخوخة عن الترحال ، والتنقل ..

وبالرغم من أن الأمن الآن أكثر استتبابا فى جميع أرجاء الصحراء الكبرى ، الا أن المرأة قد أدت دورها فى حماية القبيلة أثناء سفر الرجال فترة طويلة ، كانت الصحراء خلالها مسرحا للعبث والسرقة ، والاغتيال .

وللمرأة التى تتحرر المركز الأول فى الأسرة .. كلمتها تحترم ورأيها يسبق رأى الرجل فى شتى الأمور ، ومطالبها مجابة ..

والمرأة الطارقية لا تتكلم العربية ، فهى غير محتاجة اليها فى حياتها .. ما دامت لن تخرج الى التجارة .. ولذلك فهى لا تتعلم على الاطلاق .

انها مسلمة .. ولكنها لا تصلى .. لأنها لا تعرف الصلاة . !

كل ما تعرفه أنها مسلمة ، وأن هناك الها ، وأن هناك نبى اسمه محمد ، وحواشى بسيطة عن الاسلام ، وفيما عدا ذلك فانها تجهل كل شىء . !

والرجال الطوارق الذين يعيشون داخل الصحراء ، ولا يختلطون بالتجار وغيرهم معلوماتهم عن الاسلام والحياة لا تفترق كثيرا عن معلومات النساء . !

ومع جهل المرأة بكثير من أمور الحياة الحديثة ، فانها لا تجهل اناقتها !

انها تهتم بزينتها .. لأنها تهتم بالحب . !

وكل امرأة محبة ، لابد أن تعنى بنفسها ، بزيها .. بزينتها .

وهذا هو ما تفعله المرأة الطارقية التى لم تقرأ صحيفة ، ولم تسمع اذاعة ، ولم تشاهد تليفزيونا ، بل انها لم تر امرأة متزينة فى حياتها . !

لم تر امرأة تستعمل أحمر الشفاه .. ولكنها تستعمل أحمر الشفاه .. لقد استطاعت أن تحصل من أعماق الصحراء على نبات يوضع على الشفاه فتحمر بعد نصف ساعة . !

فهى لا تعدم الوسيلة للتجميل ، والطبيعة لا تضن عليها بأسلحة التجميل ووسائله !

والملابس ..

ملابس النساء تتكون من فستان القطن أو الحرير ، فستان طويل يصل الى الأرض .. وعلى الرأس طرحة .. وعلى العين كحل ، والجسم يفوح بالعطور . !

والمرأة فى الصحراء لا تعرف الملابس الداخلية ، وترى انها شيء اخترعته المدنية المعقدة . !

أما الرجل فان ملابسه تختلف تماما ..

انه يرتدى سوزية « جلبابا » ابيض ، طويل ، ولكنه لا يصل الى الأرض ، ويضع على وجهه لثام ، يغطى كل وجهه ، ولا يترك سوى ثقب صغير تظهر منه عينيه ليرى ما امامه .. وعلى الرأس عمامة .. ثم « الجرد » وهو أشبه بالملاءة البيضاء الكبيرة ، يلف فيها نفسه ، ويحمل السلاح دائما . !

والرجال متدينون .. محافظون . .

انهم لا يطلقون ، ويعتبرون الطلاق عار لا يجب على الرجل أن يرتكبه ..

وحالات الطلاق اذا وجدت فانها تعتبر شاذة ونادرة ..

وهم كذلك لا يتزوجون أكثر من واحدة .. على الاطلاق . !

ومحاكمهم هى محاكم البدو والقبائل .. بالرغم من أنهم يعيشون تحت سيطرة حكومات لها قوانينها الا أنهم لا يلجأون

الى الحكومة فى حل مشاكلهم ، وانما يلجأون الى محاكمهم العرفية العادية لحل هذه المشاكل .. وهى فى العادة لا تعدو نزاعا على بئر ماء .. أو شيئا ترى الحكومة أنه لا بأس من عدم تدخلها فيه ، ما دامت ليست هناك جرائم يمكن أن تكدر صفو الأمن . !

والجرائم فى هذا المجتمع متوقفة ، والسرقة نادرة . !

الناس يعيشون بالفطرة ، لم تدنسهم بعد المدنية .. وقد تقتحم المدنية هذا المجتمع الهادىء المسالم ذات يوم ، وقد تطوره وترفع من شأنه ، ولكنها ستدخل معها كثيرا من التعقيدات التى ستبدد هذه الصورة الهادئة الغريبة .

لقد رأينا الطوارق كلنا ..

رأيناهم فى عشرات الأفلام الأمريكية التى صورت هناك ، والتى لم تشر اليهم .. واذا تعرضت اليهم ، فانها لم تكن منصفة لحياتهم الأصلية . !

وبعضنا قرأ عنهم فالمكتبة الأوربية حافلة بمؤلفات عديدة عن الطوارق .. من وجهة نظر الغرب .

ومن الغريب ألا ندرس نحن العرب هذا المجتمع ، والا نعيش معه نتأمله ، ونقدم عنه المؤلفات الصادقة التى تحمل وجهة النظر العربية .

ان فى ليبيا جامعة ، وفيها قسم اجتماع ، أساتذته عرب .. يقومون بدراسات ، ومن واجبهم ان يتجهوا بهذه الدراسات نحو المجتمع الليبى نفسه .

والطـوارق قطاع من هذا المجتمع فى حاجة الى الدراسة المتأنية من المتخصصين لعلهم يفسرون لنـا كثير من تصرفات الطـوارق التى تبدو بالنسبة لنا شاذة ، وغـير مفهومة .. أو حتى أسطورية .



سالت الأموال على الأرض ..

وجرى الناس يجمعونهـا ، ويضعونهـا فى جيوبهم .. فأصيبوا بالثراء المفاجىء ..

وعندما يصاب الناس بمثل هذا الثراء .. فان أشياء كثيرة تحدث .. أنهم يتجهون الى مزيد من الشراء .. ويحاولون امتاع أنفسـهم بكل شىء .. وتروج سوق الكماليات ، وتتسع مطالب الفرد ورغباته ..

انه يريد .. ويريد .. ويريد .. وهذا معناه فى لغة الاقتصاد مزيد من الطلب ..

ومعناه أيضا ارتفاع الأسعار ، وخاصة اذا لم تقابل هذه الزيادة فى الطلب تحديد واضح وحاسم للاسعار ..!

الزيادة الدائمـة فى الطلب .. معناها أن تصاب الدولة بالتضخم .. ولقد أصيبت ليبيا بالتضخم من سنوات ..

ارتفع دخل الفرد ، وأصبح يطلب مزيدا من السلع والخدمات ، تفوق الموجود ، وتفوق الانتاج الذى وقف عاجزا عن ملاحقة مطالب الناس ، وسد رغباتهم ، وحاجاتهم .. ولقد وجد التضخم المالى أمامه حقلا خصبا لينمو ويصبح عملاقا خطيرا ..

وكل شىء كان فى خدمة التضخم ، وأكثر من عامل واحد ساعده على أن يتربع فى البلاد ..

الأسعار ترتفع باستمرار .. الشركات ترفع الأجور لتجذب الأيدى العاملة ..

والحكومة ترفع الأجور لتواجه هجرة العمال والموظفين الى العمل بالشركات ..

والسباق يدور .. بين ارتفاع الأسعار ، وارتفاع الأجور ..

الشركات .. شركات البترول تنثر الأموال فى رمال البلاد ..

والمعونات .. المعونات الأجنبية تغرق البلاد بالأموال فى صورة مشروعات .. أموال كثيرة ليست انتاجية سالت على الأرض أمام الناس .. وأصبحت النقود بلا ثمن فى ليبيا .. تحصل عليها سريعا ، وتذوب بسرعة أكثر ..

كل شىء غال .. ولكن النقود هى الرخيصة ..

كل شىء مستورد يدخل البلاد بسهولة .. والنقود تدخل بأكثر سهولة .. لتعود فتخرج من جديد .. لستورد من جديد سلعا وأدوات كمالية ، وغير كمالية .

المال الذى يدخل ليبيا بسهولة .. يخرج منها بسهولة أيضا .. فالبلاد تعيش حياة كاملة على هذه الأموال التى تدخلها .. والتى تخرج منها أيضا ..

الأموال الداخلة تعنى بالنسبة للناس أجرا من اليسير الحصول عليه ..

وهى تعنى فى الوقت نفسه بالنسبة للتجار أداة يمكن أن تشبع رغباتهم .. اذا خرجت وعادت ولم تهرب فانها تعود فى شكل سلع ، أيا كانت هذه السلع والمنتفع من هذه الدورة على كل حال ليس المواطن الليبى العادى .. أنه التاجر وصاحب رأس المال .. سواء كان أجنبيا يقيم بالخارج .. أم ليبيا يقيم فى ليبيا

أما المواطن العادى فانه يعصر دمه ويرهق نفسه .. ليحصل على المال الرخيص .. والبضائع الأساسية الغالية جدا ..

ومشكلة التضخم المالى يجب أن تناقش على أسس علمية لوضع نهاية لها ، والبنك الوطنى الليبى أعد دراسة شاملةعنها أشار فيها الى بداية المشكلة .. ومضى يشرح خطورتها ، وانتهى الى عدة مطالب وآراء من وجهة نظره أن فى تحقيقها محاولة جادة

للقضاء على التضخم فى ظل الاقتصاد الحـر الذى لم يستطع التعرض له .

تقول الدراسة «ان هناك اهتماما كبيرا بموضوع التضخم فى الأوساط الحكومية ، وعند جمهور الشعب لأسباب مختلفة فالتضخم الى جانب مؤثراته الاعتيادية المعروفة فى الاقتصاد ذو تاثير خاص على قضية التنمية الاقتصادية فى ليبيا ، فالتنمية الاقتصادية تكون فى الغالب مصحوبة بظهور اتجاهات تضخمية عامة تظهر كنتيجة للزيادة فى الاستثمار والانتاج والدخل ولم يشهد الاقتصاد الليبى بعد تنفيذ أى برنامج واسع للتنمية الاقتصادية الا أنه على وشك الوصول الى تلك المرحلة .

وعندما يوضع برنامج التنمية موضع التنفيذ سوف نجد انفسنا فى وضع يخلق اتجاهات تضخمية جديدة فى اقتصاد يعانى مشكلة التضخم من قبل .. ومعنى ذلك ان تعقيدات جديدة سوف تصاحب عملية التنمية الاقتصادية وأن علينا أن نوجه مشاكل جديدة » ..

ان التضخم ظهر نتيجة لعاملين رئيسيين الى جانب عوامل اخرى فرعية مساعدة هما : الأجنبى ، والانفاق الحكومى مثلا ..

العامل الأول .. زادت النفقات الأجنبية فى البلاد زيادة كبيرة ، وهذه الزيادة ادت الى خلق العامل الأساسى فى

زيادة الطلب على السلع والخدمات ، والتى أدت بدورها الى ارتفاع الأسعار بسبب عدم مرونة الانتاج فى ليبيا .

ولنأخذ عام ١٩٥٩ (١) مثلا لنرى ما هى الأموال الأجنبية التى انفقت فى ليبيا فى تلك السنة .

لقد سالت هذه الأموال الأجنبية فى أرض ليبيا ..

٠٠٠ر٣٠٠ر١٠ جنيه استرلينى أنفقتها شركات البترول .

٠٠٠ر٩٠٠ر٦ جنيه استرلينى أنفقتها القواعد العسكرية .

٤٠ ر٩٨٤ر٤١٥ جنيه استرلينى انفقتها الامم المتحدة .

٩٠ ر٨٦١ر٧٢٢ جنيه استرلينى أنفقتها بعثة العمليات الامريكية .

٠٠٠ر١٢١ر١ جنيه استرلينى انفقتها الهيئات الدبلوماسية

وبذلك يكون مجموع الانفاق الأجنبى فى ليبيا عام ١٩٥٩ هى ٣٠ر٨٤٦ر١٩٤٥٩ جنيها استرلينى (والجنيه الاسترلينى يساوى جنيه ليبى) .

ومن قراءة هذه الأرقام يتضح أن مجموع النفقات الأجنبية كبير بالنسبة لمجموع الدخل الذى قدره مكتب الاحصاء المركزى

---

(١) الصورة تغيرت بعد ذلك .. ولكن التغيير كان يعنى دائما زيادة حدة المشكلة ..

فى نفس العام بحوالى ٦٠ مليون جنيه ليبى ، ومعنى هذا ان نسبة الانفاق الأجنبى الى الدخل القومى ٣٢٫٤ ٪ من مجموع الدخل القومى ..

ومجموع النفقات فى ارتفاع مستمر نتيجة لزيادة موارد البترول «١» .

ولقد كانت الزيادة الفجائية والعالية فى الطلب على السلع والخدمات هى العامل الأساسى فى ارتفاع الأسعار ، وهذه النفقات لم تكن من النوع الذى يعمل على خلق زيادة هامة ومباشرة فى الانتاج لتخفف من الضغط على الأسعار ــ ولو جزئيا ــ لو كانت من النوع المنتج ، فقد انفقت على السلع .

ان جزءا من هذه النفقات اقتصادى ، كنفقات شركات البترول وبعثة العمليات الأمريكية ، وكذلك نفقات الأمم المتحدة

---

(١) ظلت حصيلة الحكومة الليبية من النقد الاجنبى من الخارج ثابتة من سنة ١٩٥٧ الى سنة ١٩٦٠ وتمثل حوالى ٧٠٪ من جملة المتحصلات ، ثم هبطت بعد ذلك تدريجيا حتى بلغت نسبتها ٨٪ فقط عام ١٩٦٥ ، ويرجع ذلك الى التخفيضات التى قررتها كل من الحكومتين البريطانية والامريكية فى نفقات القواعد العسكرية ، وانخفاض عدد الافراد العاملين بها ، وعلى النقيض من ذلك زادت متحصلات الحكومة من النقد الاجنبى الناتج عن عمليات البترول حتى وصلت الى ٨٤٪ فى عام ١٩٦٥ .

أما الباقى فينفق فى أغراض غير اقتصادية كالنفقات العسكرية ، ونفقات الهيئات الدبلوماسية .

وحتى الجزء الاقتصادى من هذه النفقات لايعد منتجا بصورة مباشرة فنفقات شركات البترول التى تمثل الجزء الأكبر من هذه الأموال تصرف فى عمليات التنقيب ، أما الانفاق على المساعدات الفنية من قبل الأمم المتحدة وبعثة العمليات الأمريكية ، فيسيل الى التأثير فى الانتاج بطريقة بعيدة وغير مباشرة ، اذ تعمل على زيادة الانتاج عن طريق التحسين فى طرقه ووسائله لا عن طريق خلق مشروعات انتاجية !! ويصرف جزء كبير من نفقات الأمم المتحدة على مد الحكومة الليبية بخدمات المستشارين ، وبالتقارير الفنية .

وفى الوقت الذى ساعدت فيه النفقات الأجنبية على زيادة الطلب على السلع والخدمات وبالتالى فى ايجاد الاتجاه التضخمى لم تعمل على خلق زيادة فى الانتاج تخفف من التضخم الذى اوجدته ، ولكن قوبلت الزيادة فى الطلب التى وجدتها هذه النفقات بالزيادة فى الواردات من الخارج .. !!

والانفاق الحكومى ايضا هو العامل الرئيسى الثانى فى خلق مشكلة التضخم .

فلقــد ساهمت ميزانية الدولة نفسها بقسط كبير من خلق التضخم .. فالأموال المنفقة من قبل الحكومة والتى تتحول الى سلع للمواطنين تفوق الاموال التى تحصلها .. اذ ان الايرادات الداخلية دائما أقل مما تتطلبه تغطية جميع النفقات .. فهناك عجز مستمر فى الميزانية منذ سنة ١٩٤٥ حتى الآن ، وهو يمثل الفرق بين مجموع النفقات ومجموع الايرادات المحلية ، ومعنى ذلك أن الحكومة تمد الاقتصاد بقوة شرائية اكثر مما تأخذ منه عن طريق الضرائب لأن الضرائب تعنى تحميل الرأسماليين والتجار أعباء تنقص من دخلهم ..

وتمويل الفائض يتم عن طريق الايرادات الأجنبية .

كل ذلك دفع بالاقتصاد فى الاتجاه التضخمى .

ففى سنة ١٩٥٤/١٩٥٥ كانت الايرادات المحلية ٥٥٤٩ ألف جنيه ليبى وكانت النفقات ٨٧٩٨ ألف جنيه ليبى .

وفى سنة ١٩٥٥/١٩٥٦ كانت الايرادات المحلية ٧٠٦١ ألف جنيه ليبى ، وكانت النفقات ١٢٩٧٨ ألف جنيه ليبى .

وفى سنة ١٩٥٦/١٩٥٧ كانت الايرادات المحلية ٨١٤٧ ألف جنيه ليبى وكانت النفقات ١٥٤٣٣ ألف جنيه ليبى .

وسنة ١٩٥٧/١٩٥٨ كانت الايرادات ٩٥٩٥ ألف جنيه ليبى والنفقات ١٧٠٣١ ألف جنيه ليبى .

وسنة ١٩٥٨/١٩٥٩ كانت الايرادات ٩٦٦٤ ألف جنيه ليبى وكانت النفقات ٢٠١٨٠ ألف جنيه ليبى .

ومعنى ذلك أن نسبة العجز فى الايرادات تزيد عاما عن عام .. بينما تزيد نسبة الانفاق ..

فأين تنفق الحكومة هذه الأموال .. وكيف ..

أن أول ما يلفت النظر هو النسبة الكبيرة الغير عادية التى تنفقها الحكومة على الادارة فقد بلغ المتوسط الشهرى لتلك النفقات خلال الأربع سنوات من ١٩٥٤ الى ١٩٥٩ حوالى ٤١ر٣٩ ٪ من مجموع النفقات العامة .

كما بلغ مجموع الانفاق على الادارة العامة والدفاع فى سنة ١٩٥٧/١٩٥٨ حوالى ٦٢ر١٢ ٪ من مجمل الدخل القومى الذى قدر فى ذلك العام بحوالى ٣ر٥٢ مليون جنيه ليبى ، وكانت هذه النسبة أعلى فى سنة ١٩٥٩ اذ وصلت الى ٣٩ر١٣ ٪ من مجموع الدخل القومى الذى قدر فى ذلك العام بحوالى ٦٠ مليون جنيه كما ذكرنا ، والحقيقة أنها نسبة عالية جدا فى بلد متخلف مثل ليبيا حيث يقل فيها رأس المال الذى تحتاجه البلاد للعمل على زيادته عن طريق الانتاج ..

فكلما كانت مجموعة الاموال التى تنفق فى الأغراض الادارية كبيرة نقصت بالتالى الأموال المتوفرة للانفاق فى الميادين الانتاجية والخدمات وكان جانب الاجور فى الميزانية مصدرا للتضخم .

والأرقام تبين أن التوزيع العام للنفقات قد وجه معظمه للابواب الأقل انتاجية نسبيا اذ بلغ مجموع الأموال المنفقة على الأنتاج المباشر للسلع ربع ما انفق على جانب الادارة العامة ،وحتى أقل من الأموال التى تنفق على الأمن وحده ..

وهكذا مرة ثانية كان توزيع الحكومة للميزانية مصدرا من مصادر التضخم ..

أما الايرادات فان أهم جزء فيها يأتى عن طريق الضرائب غير المباشرة ، وخاصة الرسوم الجمركية .. ومتوسط نسبة الضرائب الغير مباشرة لمجموع الايرادات كبير بالنسبة للضرائب المباشرة .

وهذا معناه أن هذه الضرائب تعود على المستهلك لا على التاجر . فهو الذى يتحمل عبئها فى شكل ارتفاع فى الأسعار ..

ومعنى ذلك مزيد من الضغط على المستهلك الصغير ... تعطيه ، مايسحبه منه التجار ثمنا للسلع الأجنبية ونظام الضرائب المباشرة نفسه يساعد على ظاهرة التضخم أيضا . ان الضرائب فى ليبيا تنازلية ..

ففى ولايتى طرابلس وبرقة تبلغ الضريبة على الدخل الصافى القابل للتحديد وللشركات العاملة فى التجارة والصناعة ١٠ ٪ ، وعلى الدخل الفردى ٨ ٪ ، وعلى الدخل الفردى الذى يقل عن ١٥ جنيها شهريا ٤ ٪ ..

وتبلغ قيمة الحد الأدنى للاعفاء من الضرائب ٨٠ جنيها فى السنة ، ولا يطبق الاعفاء على من يتجاوز دخله هذا الحد الأدنى ..

فالعبء فى هذه الضريبة يقع فعلا على أصحاب الدخول المنخفضة ..

والبنك الوطنى الليبى يقول انه حتى هذه الضريبة المنخفضة ، لا تجبى لأن هناك نسبة كبيرة من الغش والتهرب من دفع الضرائب.

ويطالب البنك بفرض ضريبة تصاعدية ، وبفرض ضريبة على الأملاك الحالية ، فان المساكن تعفى من الضرائب لمدد قد تصل الى ١٥ سنة بموجب قانون قديم صدر سنة ١٩٤٠ .. والمساكن غالبا يملكها الراسماليون الذين يمكن ان يتحملوا الضريبة .

والبنك يرى أيضا أن الضرائب الزراعية المتنوعة المفروضة حاليا يجب ابدالها بضريبة موحدة على الأراضى الزراعية ، لأنها الآن ضرائب غير مباشرة .. فهى مفروضة على الحبوب والمواشى

الأمر الذى يجعلها تتحول الى المستهلك ، أما ضريبـة الأرض المقترحة فيجب أن يقع عبئها على مالك الأرض بما فى ذلك الأرض الغير مستغلة .

وبجـانب ذلك يجب دراسة امكانية زيادة بعض الرسوم والضرائب الأخرى كرسوم التمغة والتسجيل التى تفرض على تجارتى التجزئة والجملة والسيارات والحانات ومحـلات بيع المشروبات الكحولية ..

أما الضرائب الغير مباشرة التى تتمثـل بالدرجة الأولى فى الرسوم الجمركية على الواردات ، فيرى البنـك فى دراساته ضرورة زيادتها على عدد من السلع وهو يقسمها الى ثلاثة أقسام :

زيادة معتدلة بالنسبة للخيول وأغصان الأشجار والحلويات وبعض أنواع الخبز والفواكه وأدوات التواليت ، وبعض السلع الأخرى .

والزيادة التالية ، التى تأتى فى المرتبة الثانية بعد ذلك وتتمثل فى سلع أخرى يقترح البنك من بينها التمور المعلبة والبن واللبن والرخام وأجهزة التسجيل والسيارات ... وغيرها ..

ويجب فرض ضريبة جمركية أكثر ارتفاعا على المجموعة الثالثة من السلع وهى تضم الأدوات الخاصة بالألعاب النارية والتماثيل

وخزف الزخرفة والحجارة الكريمة والعملة الفضيــة والزهور الصناعية وغيرها من السلع الكمالية ..

تقسيمة تحتاج الى مناقشة .. ولكنها وجهة نظر البنــك الوطنى الليبى .. !!

وعلى كل حال فليست مشكلة الاستيراد هى الرسوم الجمركية وحدها .. ولكنها أيضا فى حرية الاستيراد ، وفى مدى المنافســة بين المستوردين والزيادة المستمرة فى الواردات ..

ان سياسة الاستيراد التى تسير عليها ليبيا تتمتع بقدر واسع جدا من الحرية والواردات تزيد كل عام عن العام الذى سبقه لاشباع الطلب المتزايد . كما أنها ـ كما هو المفروض ـ تؤدى الى تقليل ارتفاع الأسعار .. ولكن المستوردون يكونون ما يشبه الاحتكار ويتحكمون فى السوق .

وبعثة البنك الدولى للانشاء والتعمير أوصت باتباع سياسة استيراد أكثر حرية كوسيلة لمحاربة التضخم ! ..

وفى دراسة سريعة للبنك الليبى لأربعة عشر سلعة كعينة لجميع الواردات تبين منها أن هنــاك درجة كبيرة من التركيز فى سوق الاستيراد لهــذه السلع ، اذ اتضح أن عدد المستوردين الذين يسيطرون على ٥٠٪ من السوق فى بعض السلع يتراوح بين صفر ـ ٣

وأن عــدد من يسيطرون على ٧٥ ٪ من الســوق فى سلع اخرى يتراوح بين ١ ـ ١٠

وبالنسبة للآلة الكاتبة مثــلا فيسيطر مستورد واحد على ما يزيد عن ٧٥ ٪ من مجموع الواردات ، وأثاثات المكاتب يسيطر على سوقها تاجران اثنان فقط .!

وكذلك اتضح أن بعض التجار يسيطرون على جزء كبير من سوق أكثر من سلعة واحدة ، وخاصة فى أدوات الكهرباء والآلات المختلفة . فمثلا يسيطر أحد التجار على ٣١ر٣٥ ٪ من واردات الراديو و ٢١ر٣٢٪ من أثاث المكاتب المصــــنوع من الصلب و ٩٠ر١٠٪ من الآلات الكاتبة و ٠٩٢ر٨٪ من الثلاجات .

وتعنى هذه الدرجة من التركيز أن المنافسة محدودة ، وبالتالى أن المستوردين يتمتعون بقوة شبيهة بالاحتكار . !

ولذلك فانه من المستحيل أن تؤدى سياسة حرية الاستيراد التى يوصى بهــا البنك الدولى الى تخفيض الأسعار بالنسبة للمستهلك ..

والمفروض أن يكون التســعير الجبرى لبعض الســلع هو الحل البدائى البسيط .. ولكن هناك عقبات كثيرة تعترض نجاح فكرة التسعيرة الجبرية . أولها نفوذ التجار وسيطرتهم ثم بعــد ذلك تأتى الأسباب التى تتردد حول عدم وجود الجهاز الادارى الكفء المتمرن الذى يستطيع أن يحدد الأسعار ، ويشرف على

التنفيذ .. ولقد جربت الحكومة سياسة تحديد أسعار بعض السلع ..

فى طرابلس مثلا حددت أسعار الخضروات والفواكه بواسطة البلدية ، ولكن التسعيرة لم تطبق .. اعترض تطبيقها قوة التجار اولا وصعوبات اخرى ثانيا ..

وحاولت تحديد أسعار السيارات ! لكن التسعيرة لم تطبق أيضا.. والشىء المسعر حاليا فى ليبيا هو الادوية ، والسكر والخبز.

الأدوية ، والخبز تطبق التسعيرة عليهما .. أما السكر فله مشكلة أخرى ..

ان الحكومة تحتكر صناعة الدخان .. الصناعة الوحيدة الكبيرة فى ليبيا ..

وتحتكر أيضا استيراد السكر .. واحتكار الحكومة لتجارة السكر رفعت من سعره للمستهلك بنسبة ١٠٠ ٪ اى انه تقدر سعر تكلفة الكيلو الواحد خمسة قروش ، فيكون عائد الحكومة ستة قروش من الكيلو الواحد ، ويؤول نصف هذه الكمية الى الحكومة الاتحادية فى شكل ضرائب جمركية أما النصف الآخر فهو أرباح تجارية تذهب لصندوق الولاية .

وبعثة البنك الدولى اقترحت على الحكومة أن تترك السكر أيضا للسوق الحرة ، ليستورده من يشاء !!!

ولكن ذلك قد يؤدى الى زيادة السعر لا تخفيضه ، فقد يحقق التجار أرباحا أكثر مما تحققه الحكومة .

بعثة البنك الدولى تقف ضد نمو الاقتصاد الليبى فى طريق الاعتماد على النفس ، فلا تطالب بالتصنيع ولا تطالب بضرورة التسعيرة وانما تطالب بمزيد من الحرية للتجار ، وبمزيد من الاستيراد ، ولا تقترح فى نفس الوقت مشروعات انتاجية ..

* * *

كيف يواجه الناس هذا الغلاء ..

الأجور العاليه التى تمنحها الشركات سببت جزءا ضخما من المشكلة ..

فشركات البترول تدفع مرتبات أكثر مما تدفع القطاعات الأخرى ونتيجة لذلك ترك الناس العمل الحكومى واتجهوا اليها .

وحدث ضغط على الحكومة لكى ترفع المرتبات حتى تتمكن من المحافظة على موظفيها فقامت حكومة ولاية طرابلس بتعديل المرتبات فزادتها وأدخلت الحكومة الاتحادية زيادة تتراوح بين ٧٪ لموظفى الدرجة الأولى و٤٠ ٪ للدرجة الثانية .

وحدثت زيادات فى المرتبات فى القطاعات الأخرى ، الحد الأدنى للأجور الذى وضع باتفاق الحكومة مع شركات البترول هو ٣٥ قرشا مقابل ٢٥ قرشا فى ميادين العمل الأخرى زاد كثيرا .

وكان لهذه الزيادة اثرها على العمال فى القطاعات الأخرى .. انعكس مثلا على أجور عمال البناء .

وليبيا تعانى من أزمة طاحنة فى الاسكان .. وكان له أثره فى اندفاع العمال المهرة للعمل فى شركات البترول .. وشجعت الزيادة المستمرة فى الأجور وفى الأسعار العمال الزراعيين على التخلى عن الأرض ، وتدفقهم الى المدن بحثا عن العمل ..

* * *

والخلاصة .

ان ليبيا تعانى من التضخم المالى .. وأهم ما تواجهه لدراسة هذا التضخم هو نقص المعلومات الصحيحة عن الأسعار ، فليس هنالك أية أرقام قياسية كافية للأسعار ، ومن بعض الأرقام التى امكن الحصول عليها اتضح فى طرابلس انه فى الفترة ما بين سنة ١٩٥٩ و ١٩٦٠ ارتفعت اسعار المواد الغذائية والأدوات المنزلية ووجبات المطاعم ، واجور الفنادق بحوالى ٣٠٪ .

ولقد قام مجلس الأعمار بدراسة أسعار بعض السلع الغير غذائية فاتضح بأنه فى الفترة ما بين ١٩٥٥ و ١٩٦٠ ارتفعت أسعار الملابس بنسبة ٣٢ر٨٦ ٪ وأسعار الوقود والنور ارتفعت بنسبة ٤٥ر٥ ٪ وايجارات المساكن زادت بنسبة ٤٠ ٪ وكان ذلك قبل تدفق البترول بسنوات ، وبعد البترول من المفروض أن الأسعار قد تضاعفت عن ذلك !!

والنظـام المصرف لم يستطع من جانبـه ان يضـع حـدا تدفق البترول والنظام المصرفى لم يستطع من جانبه أن يضع حدا لهذه الموجة التضخمية عن طريق تنظيم كمية النقود ، ففى ظل النظام المصرفى الحالى الذى يقضى بأن يكون الاحتياطى القانونى ١٠٠ ٪ ويحتم ضرورة اصدار أو سحب الجنيه الليبى مقـابل الأصول الأجنبية الداخلة فى الاحتياطى القانونى ، خاصة الجنيهات الاسترلينية يكون عرض النقود معتمدا على حالة السوق دون أن تسيطر عليه الحكومة .

وهكذا فان ارتفاع القيمة النقدية للصفقات التجارية الناتج عن التضخم قد تم تمويله عن طريق النقود الجديدة التى خلقها النظام المصرفى فى شـكل عملة ورقية ومعـدنية وودائع تحت الطلب،فمن ديسمبر١٩٥٦الى ديسمبر١٩٦٠ازدادت العملةالورقية والمعدنية خارج البنوك باكثر من الضعف ، كما ازدادت الودائع تحت الطلب الناتجة عن التوسع فى الائتمان التجارى من قبـل البنوك لرجال الأعمال بحوالى الثلث فى نفس الفترة ، وبذلك ازداد العرض الكلى للنقود بنسبة ٦٦ ٪ فى خلال أربع سنوات يضاف الى ذلك أنه من المحتمل أن تكون قد حدثت زيادة فى سرعة تداول النقود بالرغم من أنه لم يستطع أحد قياس مداها لعدم توفر المعلومات الكافية .

الاهتمام بمشكلة التضخم يلخصه البنك الوطنى الليبى فى

تقريره ، فيقول ان ذلك ـ من واقع المجتمع الليبى ـ قد عكس ستة مساوىء يعانى منها المجتمع ..

هذه المساوىء الستة هى :

- ان الزيادة ساعدت فى الطلب على استيراد السلع والخدمات التى يستهلكها ذوو الدخول الكبيرة وبذلك عملت على سوء استخدام رأس المال الذى استثمر فى هذه الميادين من النشاط الاقتصادى على حساب الميادين الأخرى التى تعتبر أكثر انتاجية والتى تساهم بقسط أوفر فى التنمية الاقتصادية الفعالة ، وأوضح مثال على سوء استخدام رأس المال الوطنى هو استخدامه فى بناء المساكن الفاخرة فى كل من طرابلس وبنغازى .

- عوامل الانتاج اتجهت بسبب التضخم الى انتاج السلع والخدمات التى تستهلك أساسا من قبل أصحاب الدخول العالية بدلا من انتاج السلع التى يستهلكها جمهور الشعب ، فاندفعت الموارد بفضل الأرباح العالية الى التجارة وأوجه النشاط الاقتصادى الأخرى التى تخدم القطاع الخارجى ، وأوضح مثال على ذلك هو تحويل الأراضى الزراعية الواقعة بحول مدينة طرابلس الى ضواحى سكنية للمترفين .

- شجع ارتفاع الأسعار وتكاليف المعيشة على تدفق العمال المهرة الى شركات البترول والتجارة والاستيراد جريا وراء دخل

كبير ، فزاد ذلك من حدة مشكلة النقص فى العمال والموظفين الفنيين .

- صحب التضخم المضاربة فى شراء الأراضى والسلع المخزونة ، فاندفع الملاك لشراء الأراضى لا ليعملوا على استغلالها بل من أجل الاحتفاظ بها للمستقبل عند ما ترتفع أثمانها ، وتؤدى الزيادة فى المضاربة الى تجميد رأس المال والأرض فى أوجه نشاط غير منتجة ، كما يحتفظ التجار ببضائعهم ويحجبونها عن السوق الأمر الذى يزيد من حدة التضخم .

- ارتفاع الأسعار معناه بالنسبة للتنمية الاقتصادية زيادة فى تكاليف المواد التى تقوم بشرائها الحكومة ، فاذا ما كانت الأموال المخصصة للتنمية الاقتصادية محدودة ، فان كمية المواد التى يمكن شراؤها سوف يتناقص على مر الزمن كلما ارتفعت الأسعار ...

- التضخم يعمل على تقليل الدخل الحقيقى لذوى الدخول المنخفضة كالعمال وموظفى الحكومة ، فى الوقت الذى يستفيد منه التجار والملاك كثيرا ، وكذلك يستفيد المقترضون على حساب المقرضين الذين تنخفض قيمة مدخراتهم .

ولسوء توزيع الدخل نتائج ضارة عديدة على الاستقرار الاجتماعى أيضا .

هذه صورة سريعة لواقع الاقتصاد الليبى (١) .

أنا لست خبيرا ولا عالما فى الاقتصاد ، ولكننى حاولت قدر جهدى أن أجمع من البيانات التى توفرت لدى — وهى بيانات رسمية كلها — مايمكننى من تكوين هذهالصورة .. واقع الاقتصاد .. وهو الأساس فى أى مجتمع يقول ان هناك طبقة من التجار ومن الأثرياء يملكون كل شىء ، وتمنح لهم التسهيلات المصرفية ، يحتكرون الاستيراد .. يشترون الأرض ويحتفظون بها .. لا يقومون بمشروعات انتاجية مفيدة .. غالبا ما تكون أموالهم فى الخارج .. وبقية أفراد الشعب يعيشون حياة أخرى مختلفة .. يعيشون من أجل أن يوفروا الثراء لهؤلاء .

وعند ما يكون فى مجتمع ما قلة تحتكر ثروته .. فان ذلك يعنى أن هذه القلة هى التى تسيطر أيضا على السياسة .. وهى التى تسير نظام الحكم لخدمة أهدافها ! .

(١) فى ابريل سنة ١٩٦٣ بدأت ليبيا فى تنفيذ خطة خمسية للتنمية الاقتصادية بحوالى ١٧٠ مليون جنيه ليبى .. ولكن ما انفق كان اقل من ذلك بكثير .. ويرجع ذلك الى ضعف الادارة والعجز فى الايدى العاملة . وابتداء من سنة ١٩١٤ زاد الانفاق على مشروعات التنمية واستخدمت مشروعات البناء والتشييد اكثر من ثلثى المبالغ المخصصة لتنفيذ الخطة .



الحياة نبتت فى الصحراء . !

تلاشت آثار الاقدام من فوق الرمال ، لتحل مكانها عجلات السيارات . !

الجمل تحول الى سيارة لورى تحمل ماكينات .. والات ، ومهندسين وعمال ..

الانابيب ـ شرايين ـ اختفت تحت الرمال فى شبكة كبيرة متشعبة فى كل متر من الارض !

ملايين الجنيهات تنثر كل عام فى الصحراء القاحلة .. الطائرة دخلت حياة الناس ، واصبح استعمالها مألوفا ..

العامل الزراعى تحول الى عامل صناعى . !

البدوى خلع ملابسه الفضفاضة ، وارتدى حلة ضيقة محزقة .

المرأة البدوية خرجت من خيمتها لتقود المحراث ، وتزرع الأرض ! .

ان ساحرا جبارا غير هذا المجتمع كله .. وغير كثيرا من قيمه وعاداته وتقاليده ..

الساحر الجديد اسمه البترول ..

بترول ليبيا ! .

ليبيا هى احدث دولة عربية يتدفق فيها البترول بغزارة ليرسم خيوطا جديدة لمجتمع جديد .. كان يعيش على نصف الزراعة . ولا يفكر فى البترول .. ومتاعبه . .ومشاكله ! .

والساحر الجديد ترك بصماته فى كل مكان ، ان أكثر من نصف مساحة ليبيا تدور فيها عمليات شاقة مضنية للتنقيب عن البترول ..

وشركات البترول .. ذات الجنسيات المختلفة تتنافس فى استخراج الذهب الأسود .. والمجتمع كله يرقب نتيجة الصراع الجبار بين ١٣ شركة أمريكية وواحدة انجليزية وأخرى فرنسية وهولندية واثنين لكل من ألمانيا وايطاليا (١) . المجتمع يرقب نتيجة الصراع الجبار ويستيقظ كل يوم على نبأ جديد .. اكتشاف بئر فى منطقة ما .. وأصبح الخبر عاديا يتعاقب كأيام الأسبوع .. وفقد الناس الحماس لهذا النبأ .. وباتوا يتوقعون أنباء أخرى أكثر

---

(١) وقعت الحكومة الليبية عقود امتياز جديدة حتى سنة ١٩٦٨ بلغ عددها ١٣٦ عقدا منحت لاربعين شركة من جنسيات مختلفة

أهمية .. تهزهم وتطمئنهم الى المستقبل الذى يمكن أن يصلوا اليه اذا ما استقرت عمليات استخراج البترول .. ومدت الأنابيب كلها .. وأصبح المجتمع يتمتع بالرخاء الذى ينشده بعيدا عن الاستغلال والاحتكارات !!

والشركات تضع كل طاقاتها لتنفيذ الاتفاقيات التى عقدتها مع وزارة البترول الليبية . فالاتفاقات تقضى بان تتخلى عن ٢٥ ./ من المساحة التى ضمت امتيازها خلال السنوات الخمس الأولى من تاريخ الاتفاق اذا لم تبدأ فيها عمليات التنقيب ، وأن تتنازل عن ٢٥ ./ أخرى خلال ثمانى سنوات

ونصف هذه الامتيازات منحت عام ٥٥ ، وبقيتها منح فى العام التالى .. ومنذ عامين كانت الامتيازات تغطى ٦٥ ./ من مساحة أرض ليبيا .. وانتزعت مناطق من بعض الشركات التى لم تنفذ الاتفاقات وأصبح التنقيب الآن يغطى ٥٧ ./ من مساحة أرض ليبيا كلها فى ولاياتها الثلاث !

وان كانت الشركات تفضل أن يتم العمل التنقيبى بجوار المناطق الساحلية حتى يسهل مد الأنابيب وشحن البترول للخارج!

* * *

ان بترول ليبيا له أهمية ضخمة عند الغرب ..

والبحث الذى كتبه جيمس ونشستر لمجلة ريدرزايجست يلقى ضوءا على الأسباب الحقيقية وراء الاهتمام ببترول ليبيا ..

وسنغفل ما قاله ونشستر عن تأثير البترول على ليبيا « الفقيرة فقرا مدقعا ، والمريضة والجاهلة » ومخاوفه الكثيرة على مستقبل البترول من نمو قوة مناهضة لأمريكا وسنكتفى بقوله : « ان الاستكشفات الليبية يمكنها أن تنقذ أوربا الغربية من أن تعتمد على بترول الشرق الاوسط ، ذلك التدفق الذى يمكن له أن ينقطع بسبب الحرب أو التطورات السياسية ، فضلا عن أن الشحن الليبى لن يتأثر باغلاق قناة السويس ، أو مد الأنابيب عبر البلاد العربية الأخرى » .

وقوله :

« نحن نشحن البرميل من ليبيا بثلاثة وخمسين سنتا ، مقابل خمسة وستين سنتا من الشرق الأوسط » .

وكلام كثير يختتمه بقوله : « أنى أرى ان الاحتفاظ بالأكثرية الليبية سعداء ويعملون ، هو المفتاح الى الصورة السياسية الليبية من أجل السنوات القليلة المقبلة ، وأنها ضد التخلف .. من الخطر .. أن ليبيا تخطو بسرعة من الخرق البالية الى الثراء » !!

و .. لا تعليق على البحث الأمريكى (١) .

* * *

لقد استمرت العمليات الشاقة للبحث عن البترول وقتا طويلا .. وفى عام ٥٥ جاءت أولى النتائج عندما تدفق الذهب الأسود من أحد الآبار فى بلدة « زلتن » وما كادت تمضى أسابيع حتى تدفق البترول من بئر ثان .. وثالث .. ورابع ..

ولكن بقيت حتى الآن « زلتن » التى تملكها شركة أسو الأمريكية من أهم الآبار حيث تنتج ١٢٥ ألف برميل يوميا .

وفى ديسمبر سنة ٦١ تم افتتاح مرسى « البريقة » وشحنت أول دفعات من البترول الى الخارج .. ويجرى العمل الآن لانشاء ميناء آخر لتصدير البترول فى مدينة سدر .

لقد بلغ عدد الآبار حتى منتصف يونيو الماضى ٢٨٣ بئرا وتعمل الآن ٣٥ آلة حفر فى آبار جديدة .. وبلغ مجموع الاقدام التى حفرت مليون وثلاثة أرباع مليون قدم فى جوف الصحراء ..

وهناك آبار أخرى تدفق منها الغاز .. وآبار كثيرة تدفقت منها المياه ..

---

(١) فضلت الشركات التوسع فى استخراج البترول من ليبيا على غيرها من الدول العربية الواقعة شرق قناة السويس لاسباب سياسية واقتصادية ، فقرب أوربا ـ المستهلك الرئيسي للبترول من ليبيا ـ يقلل من نفقات النقل ، فضلا عما يحققه ذلك من تجنب لقناة السويس اما لتلافى الرسوم ، أو لاحتمال تعطيل الملاحة فيها كما حدث فى عامى ٥٦ ، ٦٧ ، ومن هنا بدأت الشركات تركز على استخراج البترول من ليبيا .

ولقد كان يمكن استغلالها بعد ذلك فى الزراعة .. أو الأغراض الأخرى .. ولكن الشركات لايهمها الا أن تربح هى ..

والخلاصة أن بترول ليبيا يصل الآن الى أوربا ، ومع ان الانتاج ما زال فى مراحله الأولى الا أنه صدر منه فى الأيام الماضية أكثر من ٧ ملايين برميلا [1] ..

الجزء الأكبر من بترول ليبيا يصدر على هيئة بترول خام ، لتستفيد الدول الأوربية من تكريره ..

وليبيا التى تنتج كل يوم ٣ ملايين برميل ليس بها سوى معمل صغير للتكرير فى مرسى بريقة طاقته ١٠ آلاف برميل يوميا ، وآخر أصغر منه فى واحة ايزيس طاقته ٢٤٠٠ برميل يوميا ..

وتمثل صادرات ليبيا من البترول ٩٩٪ من انتاجها ..

وبترول ليبيا يصدر الى غرب أوربا .. ومجموع صادراتها

---

(١) فى ٨ سنوات أنتجت ليبيا ما يزيد على ٣٠٠ مليون طن من البترول اى ما يعادل اكثر مما استهلكته كل من بريطانيا وفرنسا والمانيا الغربية ، والسويد وهولندا عام ١٩٦٧ .

وفى هذا العام قفزت ليبيا واصبحت الدولة العربية الثانية لانتاج البرول ، واصبحت الكويت الدولة الثالثة .

فى سنة ٦١ كان انتاج اليومى للبترول ٢٠ الف برميل ، ارتفع الى مليون ونصف مليون عام ١٩٦٩ ثم قفز الى مليون و ٧٠٠ الف برميل عام ١٩٦٧ وارتفع الى مليونين و ٦٠٠ الف برميل عام ١٦٨ .

وفى آخر احصائية ان انتاج بترول ليبيا قفز فى يونيو من العام الحالى — ١٩٦٩ — الى ٣ ملايين و ١٠٠ الف برميل يوميا . اى أنه كان يزيد سنويا بمعدل ١٥٠٪ .

الى ألمانيا وايطاليا وفرنسا وانجلترا ٨٥ ٪ من مجموع الصادرات الليبية للبترول .

المانيـا الغربية هى أكبر الدول استيرادا للبترول الليبى اذ تستورد حوالى ٨٠٠ ألف برميل يوميا أى حوالى ٥ر٢٧ ٪ من الصادرات الليبية . .

وتستورد ايطاليا نصف مليون برميل يوميا أى ٤ر١٩ ٪ من الصادرات الليبية أما انجلترا فهى تستورد يوميا ٤٦٩ ألف برميل أى ٢ر١٨ ٪ من الصادرات الليبية ، وتستود فرنسا ٦٠٢ ألف برميل بمعدل ١ر٢٠ ٪ من مجموع صادرات ليبيا البترولية ..

وفى خلال عام ١٩٦٧ بدأ بترول ليبيا يغزو أسواقا جديدة فى افريقيا ، وأوربا تصدر الى غانا والمغرب ، والى اليونان والسويد وايرلنده وغيرها ..

وكلام كثير يمكن أن يقال عن البترول ، وجهود الشركات فى استخراجه ، وعن المجتمع الذى يمر بمرحلة التحول ، والانتقال من الزراعة والرعى الى طور آخر .. ولكن الذى يذهب الى ليبيا سوف يلفت نظره شيء واحد . . هام .. هى صور الصحراء !

ان صورة الصحراء تغيرت تماما .. الخيام تحولت الى بيوت الليل اخترقته أضواء كثيفة مسحت ظلمته ،واحالتها الى صبح حى ..

السكون تحول الى طرقات مدوية .. أزيز الطائرات ، وهدير

العمال يختلطان معا..فيصما الآذان..النخيلات تخلت عن مكانها للآلات ، والمضخات التى تضرب الى أغوار بعيدة فى باطن الأرض تصل الى خمسة آلاف قدم .. هى عمق البئر ! .

الناس . والصورة من المفروض ان تكون من أجل الناس .. وضعوا أيديهم على قلوبهم .. مشفقين على الساحر الذى بدد السكون والظلام فى الحياة الخاملة العادية .. ثم مالبثوا أن تجاوبوا مع الصورة الجديدة ، ودخلوا اطارها . وذابوا فيها ، وأصبحوا جزءا منها !!

لقد تحول الموت الى حياة هادرة ..

الموت زرعه الاستعمار .. الجيوش الغازية ، التى أمضت فى ليبيا سنوات خلال الحرب العالمية الثانية لم تتركها الا بعد أن غرست فى صحرائها ، وخصوصا المناطق الشرقية الغاما كثيرة ..

وانتهت الحرب ، راحت الجيوش الأجنبية ، مخلفة وراءها خلايا الموت فى مناطق عديدة من الصحراء الغربية المصرية ، والصحراء الليبية ..

وفى صحراء ليبيا بدأت قوات من الفيلق الافريقى استخدمتها الشركات الأجنبية تحصد بذور الموت التى زرعتها ..

وفى البداية شهدت الصحراء سيارات مدرعة فولاذية تسير .. وحملات واسعة للتنقيب .. عن الالغام . !

وفى النهاية .. الآن .. بترول يخرج من ليبيا .. وأنابيب تمتد تحمله الى الاسواق فى الخارج ..

وبين البداية والنهاية .. قصة .. قصة طويلة .. ترجع الى الوراء .. الى العصور القديمة . !

زمان .. فى عصور يذكرها الجغرافيون ويدرسها الجيولوجيون .. كانت ليبيا بحيرة كبيرة .. بحيرة تموج بالماء .. والأسماك ، والحيوانات ، والاعشاب .. و .. هربت المياه ذات يوم بعيد لا يعرفه أحد .. وتركت وراءها مخلفات من حيوانات مائيـة وأعشاب .. و .. أشياء لا تحصر ..

ثم .. دورة طويلة من دورات الزمن مضت لا نعرف عمرها .. يسمونها عصر .. اختلطت هذه الكائنات الحية المتبقية بالرمال .. وانصهرت وتحولت الى رواسب .. وأطلق عليها صخرة البترول .!

ولنمضى بعقارب الزمن الى الامام .. سريعا سريعا ، ونطوى أجيالا وأجيالا لنصل الى عام ٤٧ ..

الحرب انتهت والحلفاء وزعوا مناطق نفوذهم فى أجزاء كثيرة من بلاد العالم وليبيا مستعمرة .. وروح الجهاد لم تخمد بعد .. والناس أعصابهم مشدودة وهم يتطلعون الى الوعود بالاستقلال بعد الحرب .

فى ذلك العام كانت تجوب البلاد بعض الأقدام .. تبحث عن شىء .. شىء ما مجهول لا يعرفه الأهالى ولا يتوقعونه ..

ولم يهتم أحد بما يفعله أصحاب هذه الأقدام ، حتى سكتوا هم أنفسهم فجأة ..

و ..

مضت سنوات على المحاولة الأولى للبحث عن الذهب الأسود وجاء عام ١٩٥١ وتنفست ليبيا عبير الاستقلال .. وانتهى الجهاد ، وبدأت مرحلة البناء . !

ومرحلة البناء شاقة وعنيفة ، وتحتاج الى جهود قوية مخلصة والى امكانيات مادية كبيرة . .

ومضى الذين حرروا بلادهم يبنون فى صمت .. حتى جاء عام ١٩٥٥ .

فى ذلك العام اكتشفت فرنسا البترول فى صحراء الجزائر وعيون كثيرة من دول كثيرة تطلعت الى رمال ليبيا ..

و ..

بدأت المحاولات أكثر جدية لاكتشاف البترول .. عروض كثيرة تنهال على ليبيا .. من شركات كثيرة .. ووقعت عقود ، وانشئت وزارة لشئون البترول .. وبدأت الشركات تعمل

وكانت الصورة التى نراها اليوم فى ٥٧ ٪ من أراضى ليبيا !

* * *

شركات البترول تنفق ببذخ (١) لأنها لن تتحمل وحدها التكلفة ولأنها أيضا تريد انتاجا سريعا مهما انفقت فى سبيله .

---

(١) قررت شركة اسوتيلا الغاء استخدام خط الانابيب الذى اقامته لنقل مياه البحر الى زلة والذى تكلف مليون دولار دفعت ليبيا نصفها .

لقد بلغ مجموع ما انفقته خلال العام الماضى (١) ٦١ مليون جنيه استرلينى بينما ميزانية ليبيا كلها ١٨ مليون جنيه ..

ودخل الحكومة من البترول لم يحدد بعد .. ان كل ماحصلت عليه هو مبالغ صغيرة كرسوم لمنح الامتياز .. البترول الذى شحن فعلا لم يقدر ثمنه حتى يمكن أن تحصل الحكومة على نصيبها وهو ٥٠ ٪ بعد خصم المصاريف التى انفقتها الشركات ، اذ تقضى الاتفاقيات بأن تخصمها الشركات فى حدود ٢٠ ٪ سنويا .

وعندما تحصل الحكومة على ايراد البترول كان من المفروض أن ٧٠ ٪ منه يذهب الى مجلس الاعمار ، لتنفيـذ مشروعات التنمية الاقتصادية و ١٥ ٪ للولاية التى اكتشف فيها و١٥ ٪ الباقية لخزانة الاتحاد . ولكن أية مشروعات .. ؟

ان بترول ليبيا وجد فى دولة زراعية .. وتأثيره على المجتمع الزراعى فى حاجة ماسة الى دراسة .

---

(١) عام ١٩٦٢ م .



الفلاحون تركوا الأرض .. وأسرعوا يتفرجون على الساحر !

لقد جمعهم حوله .. وظل يسليهم ، ويلهيهم .. حتى العيـدان الخضراء .. ضاعت وسط زحمة الالات ! ..

الارض الزراعية .. لا تجد من يزرعها ..

والاغنام .. لا تجد من يرعاها .. وملايين الافواه تريد طعاما من الارض .. ومن الاغنام..

واتجهت الأفكار الى الخـارج .. تطلب كل شيء ! .

ان أفـكار كثـيرة يجب أن توضـــع لتغير الصورة ..

والذى ينقص .. هو .. الفلاح .. الرجل الذى أعد كل شيء من أجله ..

لقد ضاع .. وهرب من نفسه .. من عمله.. من متاعبه ، وراح يواجه متاعب جديده .

المشكلة الأولى التى وفدت مع البترول .. هى هجرة الفلاحين من أراضيهم ، للحصول على عمل فى شركات البترول.

والشركات كثيرة ، ومتعددة ، وتحتاج الى أيدى عاملة ، لذلك فقد ترك الفلاحون الزراعة . وجروا الى البترول ..

وساعد على ذلك موجة الجفاف التى حلت بليبيا ثلاث سنوات متتالية لم تنزل فيها الأمطـــار فى برقة .. وكان الجفـــاف عاملا مساعدا على الهجرة !

ان مكتب العمل الدولى قرر فى احدى دراساته أن الهجرة من الزراعة هى مشكلة دول العالم جميعها ، لانخفاض مستوى الدخل فى الزراعة . اذ أنه أقل منه فى فروع الاقتصاد الأخرى ، ولأن معدل الأجور فى الزراعة اقل من مستوى الأجور عامة ..

مشكلة الهجرة اذن ليست مشكلة البلاد العربية وحـــدها ، ولكنها مشكلة عامة تعانيها الدول المختلفة ..

ولكن .. درجات الهجرة يختلف .

الهجرة فى ليبيـــا نشيطة ، وهى تتم وسط مجتمـــع زراعى قليل السكان ومساحة واسعة من الأرض الزراعية .. كل يد فيه يمكن أن تضرب فى الأرض الطيبة لتخرج خيرا من باطنها ..

ولذلك فقد انعكس أثر هذه الهجرة على الحياة عامة .. لقد خلقت هجرة الفلاحين مشكلة أعمق من الهجرة ذاتها وهى مشكلة الحبوب .. والمنتجات الزراعية ..

ان ليبيا تعتمد اليوم على المستوردات فى حياتها .. صحيح أن الزراعة لم تمت نهائيا وان جهودا تبذل لكى تمنع كارثة جفاف الأرض الخضراء ولكن الأثر قد بدا واضحا ، فى صورة المستوردات الكثيرة ، وارتفاع أسعار الخضراوات والمأكولات ارتفاعا باهظا .. ان ارتفاع الأسعار . وهى مشكلة تحتاج الى تفصيلات أوسع .. ترجع لسببين اثنين .. ارتفاع مستوى المعيشة وهجرة المزارعين وتركهم للزراعة !

لقد وصل ثمن كيلو اللحم فى بنغازى تسعين قرشا . وعندما ارتفع ثمن اللحم فى ليبيا الشهيرة بمراعى الأغنام فيها . والتى كانت تصدر اللحوم الى كثير من الدول من بينها مصر .. عندما يرتفع ثمن اللحم فان ذلك يعنى أن الناس هجروا المراعى ..

وليبيا الآن ، تستورد اللحوم بنسبة كبيرة ..

ووالى برقة قال فى احدى خطب « العرش » فى البرلمان انه لو استمرت حركة الهجرة بهذا الشكل فاننا سنضطر الى استيراد « الفجل » !

وتقرير البنك الدولى يقول : ان من مظاهر التطورات الأخيرة

فى ليبيا اتساع مظاهر هجرة العمـــال الذين لا يملكون الأرض وانتقالهم من القرى الى المدن ، وقد سار هذا الاتجاه لبضـــع سنوات » .

واذا صح ما قاله التقرير الدولى ، فانه يعنى موت الأرض الزراعية ويعنى أيضا اهمالا كاملا للزراعة ..

وقال تقرير البنك الدولى أيضا :

« كان من المفروض فى مواجهة ذلك أن يخصص أكبر جزء من العوائد البترولية لتنمية المشاريع الزراعية ، حيث أن الزراعة من أكبر العوامل على الازدهار والاستقرار فالنهوض بالزراعة والمزارع على السواء وتوزيع الأراضى ، وحماية المنتجات الزراعية وتكفل الحكومة بشراء فائض المحاصيل ، كل ذلك يرمى الى تشجيع المزارعين وبالتالى يدفع بالمزارع الى التوسع فى الأعمال الزراعية ..

وكان الواجب أن يكون البترول قد جاء ليدعم الزراعة ، لا ليشــل حركتهـــا . بل يخـــلق منهـــا زراعـــة حديثـــة ، تحل بالنسبة لها مشكلة الرى والحرث ، فنجرى الآلة فى الأرض بدلا من الثور والجمل ..

وقال لى رئيس الوزراء :

« ان البترول سيضفى على البلاد دخلا جديدا وسيغير ولا شك من حياتها وبقدر الفوائد التى تنجم عنه فهنالك أضرار أيضا

ولكى نجنب الوطن المزالق فستكون سياستنا البترولية حكيمة ودقيقة حتى لا تقع فى أخطاء ، وقع غيرنا ممن سبقنا فيها ، وسنبنى ذلك على أساس التجارب التى مرت بها البلدان المتزعمة للبترول ، وسنوفق فى سياستنا لصرف هذه الثروة وفق تخطيطات مدروسة يتكافل بمقتضاها العيش لجميع طبقات الأمة فى حدود نظام اجتماعى تتساوى فيه الفوارق الاجتماعية » .. ولا أعرف مدى ما تحقق من ذلك ولكن الواقع يقول عكس ذلك على طول الخط .

ان سياسة الحكومة الزراعية . لابد أن تكون شاملة لمشكلة الهجرة ، فاغراء شركات البترول قوى . وبدأت ليبيا تحس بالخطر فالمناطق التى كان الايطاليون يستخرجون منها القمح لمائة ألف جندى ويصدرون منه . هذه المناطق ليس فيها عود أخضر واحد .. سوى النخيل .. الباقى .. فى «مرزوق» بولاية فزان على سبيل المثال .

و .. مناطق كثيرة بدأ الجفاف يزحف اليها ..

الناس يرون أنه منذ سنوات قليلة .. قليلة .. جدا عام أو عامين أو ثلاثة على الأكثر كانت الخضراوات كثيرة .. ومزروعة .. ومتنوعة .. وكل شيء متوفر ..

والآن تضطر ليبيا الى استيراد « الفجل » كما قال أحد « ولاة » برقة السابقين وسوف يستمر الحال على ذلك فترة طويلة . ما لم يتدارك الوضع على الفور وتعد دراسة عاجلة لهذه

الظاهرة الخطيرة التى تهـــدد الأفواه التى تطلب كل يوم طعاما فلا تجده الا فى المعلبات المستوردة ..

ان السياسة الزراعية يمكن أن تكون ناجحة ومســـتمرة ، ما دامت قد وجدت الاقبال والتشجيع والحوافز لدى المزارعـــين أنفسهم ، وفى مقدمتها أن يملكوا الأرض ، ويمنحـــوا تسهيلات لزراعتها وعندها يمكن أن تقل ظاهرة الهجرة من تلقاء نفســـها فالهجرة ترتبط فى ليبيا بالقحط الذى يعيش فيه الفلاحون ..

ان فزان مثلا .. منطقة نائية جدا .. ولذلك فهى أكثر ولايات ليبيا تعرضا للهجرة ..

قال لى رئيس المجلس التنفيذى لفزان « ان المشكلة ليست مشكلة فزان وحدها .. ولكنها مشكلة ليبيا كلها .. بل انهـــا مشكلة البلاد العربية وكثير من البلاد الأوربية أيضا ..

وهى تحتاج الى دراسة من خبراء ، ومتخصصين لوضع حل حاسم لها .. »

والمشكلة تبـــدو صارخة فى ولاية فزان .. حيث الجنـــوب البعيد عن الحضارة الجديدة التى طرقت أبواب طرابلس وبرقة .. كما أن فزان منطقة صحراوية السكان فيها متناثرون فى صحراء أصبحت قاحلة ، حتى ولو أن المياه تبدو على بعد أعماق بسيطة لا تزيد عن نصف متر فى كثير من المناطق .. والميـــاه هى المشكلة الأولى التى تعترض الزراعة فى الصحراء ..

فالمياه متوفرة ، والبنك الزراعى المفـروض أنه ـ مستعد للتسليف ، وحتى لو كانت الحكومة مستعدة للمساهمة بالآلات .. فتبقى المشـكلة هى .. من الذى يزرع الأرض .. انهـا مشكلة العنصر البشرى الذى يهاجر !

وألمانيا مثلا عنـدما واجهت مشكلة الصـناعة . اضطرت فى السنوات الأخيرة الى أن تستأجر عمالا زراعيين من الخارج وبلغ أجر العامل الزراعى المستورد فى ألمانيا حوالى خمسة جنيهات فى اليوم فى حين أن أجر العامل الصناعى أجره أقل من ذلك ، ولكنه من المستحيل أن يعود الى الزراعة ، ويترك الصناعة بما فيها من تنظيم ، وامتيازات . وضمانات وحياة نظيفة تحت رعاية صحية واجتماعية ..

وليبيا لم تصل الى هذا الحد بعد .. ولكنها فى الطريق اليه .. والذين يلحون فى دراسة مشكلة الهجرة من الآن .. انما يريدون المستقبل للبلاد كلها على أسس علمية ومدروسة .. وحتى لا تواجه ليبيا مشكلة زراعية أكثر مما تواجهها الآن .. بسبب الهجرة ..

* * *

ان أهم ما يشغل الصحف الليبية هو البترول ..

أخباره .. ومشاكله .. والآراء حوله ، وماذا تقول صحف العالم عنه .

لقد أصبح الحديث عن البترول فى كل الصحف الليبية مادة عادية تقرأ كل يوم ..

وفى مجلة ليبيا الاقتصادية دراسة عن آثار البترول الاجتماعية والاقتصادية كتبها خبير بترولى دولى .. لم تذكر المجلة اسمه ..

قالت المجلة فى دراستها :

« يرى المراقب لأول وهلة أن الحياة فى مناطق الريف تسير على النمط التقليدى وتتيح عنصرا من عناصر الاستقرار يوحى بالاطمئنان ، الا أن دراسة الواقع عن كثب تكشف فى الحقيقة عن أن بعض التغييرات الهامة الأساسية قد أخذت تظهر للعيان ..

فى بعض المناطق حيث توجد مياه يمكن استعمالها للزراعة الخفيفة ، فان الأراضى الطيبة . وكذلك المبينة الحدود وأقنية الرى مهملة بسبب قلة الأيدى العاملة ، وفى مناطق أخرى فان بعض القرى مقفرة باستثناء من فيها من المسنين والنساء والأطفال اذ أن الرجال قد تركوها الى أماكن أخرى ..

ان الأعراض عن الزراعة وبصورة رئيسية من جانب الشباب وهجرهم لها . بحثا عن عمل أكبر أجرا لهو مشكل يلاقى انتباه وافر . وكلنا يعرف أن هذا تفريط بالأرض ، وموارد المياه ، وكذلك زيادة الاعتماد على الأغذية المستوردة . وضياعا دائما للمهارات التى توارثتها الأجيال .

وأخيرا .. ان النزوح عن الأرض وهجرها يعنى لا محالة بعض الفصم لعرى البيئة وروابطها فان أواصر القربى فى القرية والعشيرة قد كانت أساسا للضمان الاجتماعى فى الماضى وهى أضمن ركن لعون الشخص لنفسه وللازدهار فى المستقبل .

ويعود الخبير الأجنبى يقول فى نفس الدراسة :

ان هــذه الهجرة من الأرض ليست ظاهرة جـديدة لقـد بدأت خــلال عهــد الاحتــلال الايطالى حين تمت مصادرة قسم من أحسن الأراضى ، وترك للفلاح الخيار بين أن يصبح عاملا زراعيا بأجر لا أرض له ، أو من العمال غير المهرة فى المدن ، أو راع فى أطراف الصحراء القاحلة .. ولقد وجد الليبيون عملا فى مناطق الامتيازات والملكيات الزراعية ، ومع الجيش ، وفى الطرق وغيرها من الأشغال العامة الرئيسية ، وجرى بصورة مؤقتــة خلال الحرب استخدام الآلاف من الرجال فى ورشات الاصلاح الميكانيكية ، وباستقلال البلاد عرضت فرص كثيرة للمستخدمين بأجر ، وبالدرجة الرئيسية لدى الحكومة كرجال بوليس وسواقين وشغيلة فى مكاتب البريد وحراس وسعاة وما الى ذلك ، وفى الفترة الأخيرة كانت شركات البترول والمتعهدون الذين يعملون لحسابهم هم الذين أتاحوا للمزارع فرص العمل التى يبحث عنها ، فهم يدفعون أجورا أعلى الى حد ما مما يمكن كسبه من العمل فى الطرق أو غيرها من الأشغال العامة ، ويقدمون مزايا اضافية مثل الغذاء والسكن المجانى للعاملين فى مخيمات الصحراء ..

ان صناعة البترول قد اتسمت بسمة الثراء الذى لا حد له وقد بدت لليبى العادى مدعاة أمل كبير بعمل مدر للربح ومســتقبل أفضل ..

والتقرير طويل ، ويتنــاول جوانب عديدة من الآثار التى خلفها البترول على ليبيا .



الموظفون تركوا الحكومة .. الأسعار ارتفعت ..

ليبيا كلها تتحدث عن المستقبل .. كان يمكن أن تقوم صناعات .. أن تتوزع الثروة توزيعا عادلا .. ألا يترك الناس فى فقر .. السل ينتشر ، والأطفال يموتون ..

الخطر لم يكن فى تدفق البترول ، وما ترتب عليه من مشاكل .. كان الخطر أيضا فى ذلك الذى حدث بعد أن تدفق البترول .

جوائز الذهب التى اقيمت فى ليبيا .. جلس عليها علية القوم وتركوا بقية الشعب نهب الجوع ، والمرض .. والفقر.

كل تقدم صاحب البترول انتفع به البعض .. وجرى وراءه جموع الناس ، فاذا بهم يجرون وراء سراب .. للفلاحون والبدو اتجهوا الى آبار البترول .. وتركوا الزراعة وخلفوا وراءهم الزوجة والطفل .. والرجل المسن .. ولكنهم لم يحققوا شيء .. الشيء الوحيد المؤكد الذى حققوه هو ان الأرض ماتت .. والأشجار بدأت تفقد أوراقها الخضراء .. وبدأ الجفاف والقحط يحل بالأرض الزراعية .

والوظيفة الجديدة على متاعبها لابد ان تشد انتباه الرجل الذى عاش حياته قدريا داخل الصحراء ، ينتظر المطر ويتطلع الى السماء يستلهمها رعاية لزرعه ، ولأسرته ..

وعندما يصل هذا الرجل الى المدينة لابد أن قيما كثيرة تتغير عنده .. ولا بد أن الحياة فى المدينة سيصاحبها تغير فى المفاهيم والأخلاق ..

انه نفس التحول الذى يحدث دائما بكل عامل فى الزراعة يتجه الى الصناعة ، وهذا التحول هو طابع العصر الحديث منذ مرت به أوربا فى منتصف القرن التاسع عشر عندما بدأت تتجه الى الآله .. وكل الدول العربية والنامية تمر به اليوم ..

كل القيم والعادات والأخلاق .. كل انماط الحياة تتغير مع الآله .. وليبيا لم تدخل عصر الآلة ، ولكنها دخلت عصر البترول..

والبترول جزء من الصناعة . استطاع أن يحدث تأثيره على الناس ..

التأثير الاقتصادى الذى أحدثه البترول على جماهير الشعب ليس محسوسا الا فى الغلاء ، ومع أفواج المهاجرين والفنيين الذين بدأت تستقبلهم البلاد .. ولكن التأثير الاجتماعى بدأ يظهر واضحا .

العامل الزراعى .. خلع ملابسه الفضفاضه وارتدى «عفريتة» العمل .. حتى تساعده على الحركة السريعة ..

بدأ هذا البدوى يدخل فى علاقات جديدة ، ويطلع من خلال المهندسين والموظفين على أنماط جديدة من السلوك .. ولا شك أن ذلك سيغير من تفكيره ، وآفاقه ..

لقد ترك العامل زوجته ، تزرع الارض أو ترعى الغنم ، وراح هو يجرى وراء الربح السريع ، بالعمل فى حقول البترول التى تغطى منطقة واسعة من البلاد ..

وأصبح على المرأة عبء جديد .. قالت لى عنه واحدة من زعيمات الحركة النسائية فى بنغازى .. ان المرأة فى كثير من المناطق أصبحت مسئولة عن الأسرة بسبب هجرة الرجل .. صحيح أنه قد فتح أمامها مجالات للعمل ، فاستطاعت أن تحل مكان الرجل فى الأعمال التى كان يمارسها فى الزراعة والرعى .. وأصبحت المرأة الآن فى الريف يدا عاملة تحاول أن تسد النقص فى الزراعة وتوقف تيار الاستيراد من الخارج ..

وفى نفس العام وقف رئيس المجلس التنفيذى لولاية برقة فى البرلمان يقول : انه اذا استمر الحال على ذلك فان ليبيا سوف تستورد « الفجل » .

لقد رفع البترول مستوى المعيشة .. زاد اقبال البنات على المدارس .. وغير كثير من الآباء نظرتهم الى العمل ..

ان هذا كله قطاع واحد .. من آثار البترول . . لقد استطاع البترول أن يفعل الكثير .

البترول أوجد ثراءا فاحشا عند البعض ، وخلق فئة من أثرياء البترول .. والناس الذين ذهبوا الى البترول وجدوا أجورا أحسن . ولكن غالبية الشعب لايحس بالبترول الا فى صورة مشاكل .. مهاجرون يخلقون أزمة اسكان .. غلاء فاحش ..

والبترول كان يحتاج الى تنظيم يضمن التوزيع العادل ، وحياة الاستقرار فى البلاد .. تحتاج الى جهود واعية لهذا التنظيم..

وان تكون الثروة البترولية مشجعة على تنمية الثروة الزراعية تشجيعا يضمن لها الازدهار بعكس الزراعة .

ان البترول سيعم خيره ، وان الشركات مفروض انها تستخدم أكبر عدد من العمال والموظفين الوطنيين . وبذلك تنعدم البطالة تقريبا فى بلادنا ، وترتفع موارد الكثير من المواطنين الذين يعملون فى تموين الشركات وامدادها بوسائل النقل وغيرها .. أما عوائد البترول اذا استغلت لصالح الشعب ولتطويره وخلق صناعة حديثة ، وبناء دولة جديدة ، بمرافق جديدة وامكانيات جديدة

فانه نفتح لها آفاقا من التقدم ، والا يظل البترول يحقق فائدة للبعض والاضرار لجموع الشعب .

ان تقرير لجنة البترول الليبية .. يقول ان المجموع الكلى للذين يعملون مباشرة فى الصناعة البترولية بلغ ١١٩٠٠ منهم ٨٤٠٠ من الليبيين ، وبدأ التدريب والتدريس داخل ليبيا وخارجها من الشركات يؤدى دورة ، ويعطى أثره فى رفع مستوى العمل ..

صحيح .. ان البترول امتص عددا كبيرا من العمال ..

ودخل البترول يذهب الى مجلس الأعمار ومجلس الأعمار يوزعه بمعرفته ..

وبعثة البنك الدولى تقول انه من أصعب الأمور أن نتحقق أن البترول سينفق لصالح الشعب ، فان بلادا من التى تدفق فيها البترول منذ سنوات مازالت فى فقر مدقع ..

والسبب فى رأيى هو أن عائد البترول .. يذهب الى جيوب الأمراء .. لا الى مجالس تخطط وتنفق للشعب ..

فان مشاكل البترول هى التطور السريع فى حياة المجتمع .. مثلا لقد جذبت حقول البترول العمال .. من الفلاحين ..

وجذبت مكاتب الشركات الموظفين .. من الحكومة .. حتى أنها اضطرت الى أن تحتم على الشباب أن يمضى سنوات فى خدمة الحكومة عقب تخرجه .. ان الموظفين تحولوا الى العمل فى الشركات .. وتقرير البنك الدولى يضرب مثلا بمصلحة حكومية واحدة

فقدت خلال سنة واحدة ٢٠ موظفا من اكفأ موظفيها « ولا شك أن فروع الادارة الأخرى واجهت نفس المشكلة » .. ولقد قدرت البعثة أن الصناعات البترولية ستوفر عملا مباشرا لعشرين ألف عامل ..

ولقد زرت اتحاد نقابات العمال فى برقة ، قال لى سكرتير الاتحاد أن فى برقة تسع نقابات عمالية ، وأن مشاكل العامل الليبى ، هى نفسها مشاكله فى كل بلد عربى ، فالقانون استثنى طبقة كبيرة من العمال من قانون العمل ، فقد حرمت القوانين عمال الحكومة والمؤسسات من الحق النقابى ، وكذلك عدم استقرار العامل النقابى ، وكذلك عدم استقرار العامل فى عمل واحد . والقانون نص على تشكيل لجنة تحكيم .. ومنذ سنة ٥٨ لم تتكون هذه اللجنة كما أن الشركات تتحايل على فترة الاختبار ، ومدتها ثلاثة شهور ، وتفصل العامل قبل مضى المدة ..

ان الحكومة حددت أجر العامل بحيث لا يقل عن ثلاثين قرشا فى اليوم ، وعمال الحكومة ٤٠ قرشا .. أما العامل الفنى فحسب مقدرته وكفاءته ، ومدة العمل التى حددها القانون ٤٨ ساعة فى الأسبوع .

ونائب رئيس نقابة عمال البترول قال لى ان هناك نسبة المفروض أن تلتزم بها الشركات فى عدد عمالها بأن تكون ٢٥٪ فقط أجانب ، ولكن الشركات لاتلتزم هذه النسبة .

كما أن العمال يقعون تحت سيطرة مقاولى الأنفار .. ان العامل يمنح أجرا يوميا ٥٠ قرشا مثلا ماعدا غذائه ومسكنه والمقاولون يأخذون على الفرد جنيهين للنوم والاكل .. ويستغلون العمال ، فيحشرونهم فى خيام ، كما يقدمون لهم وجبات تافهة .. والنتيجة أن المستفيد الأول هو التاجر .. والمفروض أن يمنح العامل أجره مضافا اليه تكاليف مسكنه ومأكله ويتصرف هو .. أو توضع رقابة حاسمة على هؤلاء المقاولين بحيث يؤدون الخدمات دون استغلال ..

ان الظاهرة البارزة فى التحول .. هى الغلاء ، وارتفاع الأسعار .. وأزمة المساكن .. ان امكانيات الاسكان أقل بكثير من الوافدين ، وكانت النتيجة الغلاء .. حتى فى أسعار الفنادق .

وتقرير البنك الدولى يناقش هذه الظاهرة فيقول أن عمليات الزيت كان لها أثر مباشر على الاقتصاد يمكن لمسه فى المدن ، وذلك فى الارتفاع الكبير الذى طرأ على ايجارات المساكن والفنادق والخدمات الأخرى التى يتطلبها الأجانب بصورة خاصة وكذلك الارتفاع الذى طرأ على الأجور ، والمرتبات التى تدفع للعمال الليبيين المهرة وأشباه المهرة ، كما لمسه فى قيام مشاريع تجارية وانشائية عديدة ليبية وأجنبية تشمل الخدمات التى تتطلبها شركات الزيت .

والعمال .. ينفقون كل ما يحصلون عليه ، فى مجالات متعددة على الضروريات والكماليات ، والمسائل الترفيهية أيضا ..

لقد سمعت ان مرتب سائق السيارة فى شركات البترول تسعون جنيها لماذا .. لان الشركات تخصم هذه الأموال من حصة الحكومة ومن حقها عند اقتسام نسبة الربح .. لذلك تنفق الشركات ببذخ وتضيع كل النقود فى الاستهلاك .. استهلاك البضائع المستوردة والمغلفة .. وتدور الحلقة المفرغة ولا تنتهى أبدا .

وأخيرا ..

ان البترول يحظى باهتمام كل الناس فى ليبيا .. الصحف تتحدث دائما عن البترول والناس يتكلمون عن مشاكله ..

ومشاكل البترول كثيرة .. والآمال المعقودة عليه أكثر .. هذه الآمال والمشاكل مكفولة .. ولا استطيع أن أزعم أننى قد قلت كل شىء عن البترول حتى الآن .. ولكننى أنقل صورة من المناقشات حول البترول من جريدة العمل التى كتبتها تحت عنوان « بترول .. أحذروا الخطر » قالت :

« ان الدولارات تتدفق اليوم على الشركة ــ أسو ــ وتدخل خزينتها ولم نسمع من الحكومة هل استلمت شيئا أم لا .. ونحن لا نعرف ذلك بعد .. وثمة شىء أهم وهو ان الشركة ستقوم بخصم ما انفقته فهل سيكون ذلك دفعة واحدة أم على فترات .. اننا نتخوف من أن تقوم الشركات بتبديد الأموال فى مشاريع مياه البحر ، وخصم مصاريفها مقدما دون أن ننال من ذلك الا رائحة البترول التى زكمت أنوفنا فقط .

ان الشركات تسعى جاهدة لكى لا تدفع لنا .. لأن ذلك ليس من مصلحتها على الرغم من أنها حددت سعر البترول الليبى ليذهب الى خزينة شركة أسو أو غيرها ..

ان الشركات تحاول احتكار بترولنا بشتى الطرق والوسائل وتوهمنا بأنه لا أسواق للبترول الا بمعرفتها ..

« المسألة ليست مجرد عقود انها أخطر من ذلك .. انه الذهب الأسود .. بترول .. بترول .. أحذروا الخطر » ..



الـزوجات يبعن بأسعار غالية ، فى أسواق راكدة .. فالأسعار مرتفعة . والأسوار التى يعيش فيها الحـريم عالية ! والشباب .. فى عروقه دماء تغلى ، وتفور .. والبنات كثيرات ولـكن القـانون جعـل الحـديث معهن جريمة عقوبتها السجن !.. وهرب الشباب من المعركة .. وتسلل الى الخـارج .. وراح يسـتورد الزوجات !..

ودخلت السوق سلعة جديدة .. لها ميزات عديدة .. رخيصـة .. ومكشوفة .. و .. تختارها بنفسك !..

مع هذه السلعة برزت مشكلة . مشكلة الزوجة المستوردة ... التى لم تستطع الزوجة المحلية الصمود أمامها ! ..

وتحولت مشكلة بيع الزوجات الى مشكلة استيراد الزوجات ! وتفتتت جهود المرأة وهى تحارب فى أكثر من جبهة . ومن خلف الأسوار العالية !

ولقد تركت من ورائى معركة حامية يشترك فيها شبان متحمسون ورجال دين متزمتون .. ويرتفع فيها صوت خافت . هو صوت المرأة .. المعركة تلف وتدور ، حول مسائل كثيرة . ولكنها لا تخوض جوهر المشكلة ! .

***

أمضيت فى ليبيا أكثر من شهر .. طفت خلاله مدنها الهامة والغير هامة .. وركبت كل أنواع المواصلات .. ابتداء من « الكروسه » حتى الطائرة .. ولم أنس أن أبحث عن المرأة فى كل مكان ذهبت اليه .. بحثت عنها فى طرابلس .. وفى بنغازى .. وفى سبها . العواصم الثلاث للولايات ولكنى لم اجدها ! .

لم أجدها فى المتجر ولا فى المصنع .. ولا فى الوظيفة .

وقال لى السكان جميعا . انها ماتزال هناك . بعيدا . بعيدا جدا .. خلف الأسوار العالية .

والقليلات .. القليلات اللاتى مكنتهن ظروفهن الاجتماعية من تخطى الأسوار .. هؤلاء لسن فى حاجة الى العمل ، أى عمل !

ورحت أبحث عن المرأة خلف هذه الأسوار ..

قال لى مدير المطبوعات بطرابلس « أنصحك بزيارة معهد المعلمات » ! ..

وذهبت ! ..

المعهد تحوطه أسوار عالية وله باب حديدى ضخم . وبابه الداخلى أشبه بابواب قلاع العصور الوسطى .. وعلى الباب وقف صديقى ابن ليبيا مترددا لايريد الدخول .. وهمس فى اذنى .

ــ ممنوع الدخول .. لم يحدث ان وطأت أرض هذا المكان أقدام رجل من قبل . وظللنا مترددين . حائرين . حتى جاءت « الفراشة » .

لم نر وجهها ولا يديها .. وانما رأينا كتلة من الأردية البيضاء أمامنا .. وارتبك صديقى ولم يتكلم .. وتكلمت أنا وقلت : نحن على موعد مع المديرة .. واستدارت المرأة مسرعة .. وتركتنا عرضة للأنظار القاسية تلهبنا من الخارج .. والأنظار المستترة التى تريد أن تكشف سرنا .. من الداخل ! ..

ثم أذنت لنا بالدخــول ! .. بعد أن « فضوا السكة » فلم تصادفنا خلالها . طالبة . ولامدرسة ولا أى أثر للجنس الناعم ولا حتى أحد يدلنـــا على الطريق ! وكان فى ذهنى سؤال . هل يسمح للمفتش بالدخول .. وعرفنا الرد أن المفتش يخوض نفس تجربتنا حتى يصـــل الى مكتب المديرة يستدعى المدرسة .. فاذا كانت ليبية .. فانها تكلمه وهى محجبة لا يرى وجهها .. ولا حتى عينيها .

واذا كانت أجنبية فانهـــا تجلس معه . ويفتش على المدرسة ذاتها دون أن يرى الطالبات من غرفة المديرة فقط .. ثم يعـــود أدراجه . الى الخارج . مودعا بنظرات كثيرة من الخـــارج .. والداخل .

وجلست على مكتب المديرة المصرية .. ومضيت أسألها أسئلة روتينية عادية ..

عـــدد طالبات المعهد ٦٨٤ طالبة .. موزعات بين الاعـــدادى والثانوى والمعلمات .

وفى الداخلية ١٨٨ بنتا من خارج طرابلس .

والبرامج :

برامـــج التعـــليم .. انهـــا نفس البرامـــج العربيـــة مع بعض اختلافات « مثلا احنا عندنا فى مصر يدرس الطالبـــات فى

الحساب مثلا مسائل فيها سعر تذكرة السكة الحديد .. هنا مفيش سكة حديد خالص ..

وعدد المعلمات ؟ ..

وتصمت المديرة ثم تقول :

عندنا ٤٥ مدرسة بينهن ٣ ليبيات و ١٠ فلسطينيات وأردنيات والباقيات مصريات ... و ٩ موظفات و ٣٠ فراشة .

وتردف هذا هو المعهد الوحيد للبنات بعد الابتدائى فى ولاية طرابلس عدا مدرسة التمريض .. ولابد أن تكتب أن التعليم مجانا خالص .. حتى فى الداخلية .

و .. شىء من التاريخ عن المعهد الذى انشىء منذ عشر سنوات .. مع الاستقلال .. كمحاولة لسد الثغرة من حاجة البلد الى المتعلمات .. ولكن أثر هذا المعهد بعد ١٢ عاما لاشىء ..

انه يخرج معلمات . وعدد المعلمات الليبيات فى المعهد ٣ .

ذلك لأن المشكلة قد تبدو فى أن تعمل المرأة حتى اذا تعلمت .

ثم تتحدث المديرة عن الطالبة التى تمتاز بوعى وطنى عربى قوى فالبنات يجدن اللغة العربية والأدب العربى .

ان نصف عدد طالبات المدرسة محجبات ..

البنات اللاتى خلعن الحجاب .. ارتدين البالطو والبيشة هنا أربع طبقات ! ..

وفى المعهد التقيت بصورة أخرى للفتاة .. مدرسة ليبية بالمعهد قالت لى أنها أول فتاة تعلمت فى طرابلس .. وتكلمت عن الحجاب طويلا الى حد أنها قالت انها ترى أن تخرج البنات الى البلاجات !

هذه المدرسة ليست نموذجا لبنت ليبيا .. فقد تعلمت فى ايطاليا . وعادت تعيش فى المجتمع بعقلية ايطاليا ! !

ثم تعود الى الحديث الهام الجاد .. مع المديرة .. قلت لها :

ـــ أريد أن أدخل الفصل .. البنت الليبية . لقد بحثت عنها فى كل مكان .. فلم أجدها !

ودهشت المديرة من طلبى الغريب .. وقالت :

ـــ ممنوع .. الأوامر .. والتقاليد .

قلت :

ـــ هل يمكن أن نرى مدرسة ليبية .. تعلمت فى ليبيا . ؟؟

ـــ السيدة رباب غايبة النهاردة .. والمدرسات الأخريات يرفضن الحديث مع أجنبى ! .

ـــ والطالبات ..

وجاءت فكرة ..

ان سكرتيرة جمعية النهضة النسائية فى طرابلس طالبة بالمعهد فى السنة الثانية الثانوية !! .

وجاءت أسيا ..

وتعجبت أن تكون سكرتيرة الجمعية النسائية التى من المفروض أن تقود النشاط النسائى ، مجرد وجود هذه الفتاة بهذا المستوى من التعليم يدل على ضعف الحركة النسائية والشلل الذى تعانى منه .

وجاءت الفتاة . السكرتيرة . الطالبة .

فتاة صغيرة .. تتكلم باللغة العربية الفصيحة بحساب ولا تبتسم أبدا . .

ولكنها تناقش كثيرا .. وهى ليست محجبة .. داخل المدرسة !

قالت لى أن لها قصة مع الحجاب . اقتنع أهلها بعدم جدواه واقتنعت هى . وخلعت الحجاب . ولكنها سمعت كلمات من السخرية من كل من قابلها .. وذهب أفراد الى والدها وقالوا له أنهم مستعدون أن يشتروا لها الحجاب من جيوبهم .. ومن يومها عاد الحجاب الى وجهها . وفشلت محاولة سكرتيرة جمعية « النهضة » فى خلع حجابها ! ..

ان حجاب هذه الفتاة هو البالطو والبيشه .. على الوجه .. وهو أخف أنواع الحجاب لان المرأة الليبية محجبة تماما .. انها ملفوفة « بفراشـيه » كبيرة لايبـدو منها سوى ثقب تنظر منه بعينيها ! ..

المرأة التى ترتدى فستانا . وتلف جسمها « بفراشيه » فى الافراح تبرز من تحت « الفراشيه » آخر الموضات العصرية .

وقالت لى الفتاة : ان البنت تريد أن تتحرر .. ولكنها لاتجد امامها المجال .. وعندما تصل الى سن ١٨ .. السن الذى يجب ان تتزوج فيه .. ترى نفسها فى وضع لا يسمح لها الا بالزواج .. والا اين تذهب ؟

ان فتيات كثيرات يردن الذهاب الى الجامعة .. ولكن أهلهن يرفضن .

***

الزواج . هو المشكلة الأولى : —

الرجل يتزوج المرأة . ولا يراها ولا يعرفها الا ليلة الزفاف .. ولندع واحدة أخرى من الفتيات تتكلم .. انها سكرتيرة جمعية النهضة ببنغازى تتحدث عن الزواج .. المشكلة الأولى فى حياة الفتـاة .

« المهور هنا مرتفعة . مرتفعة جدا . المهر يصل الى سبعمائة جنيه . وعندما يدفع الرجل المهر . فهو يجهز بيته أيضا !
والخطبة تتم بين الآباء .. ولا يسمح هنا برؤية المرأة التى سيخطبها .. وفى هذا ظلم على الرجال . وظلم على النساء أيضا .. والعادات الكثيرة تجعل من الزواج عملية شاقة تحتاج من الشباب الى مهارات مختلفة . ولكى نتصور الوضع . نضرب مثلا بمصاريف الفرح .

ذهب العروس .. أقل عروس لايقل عن ١٠ أوقيات بمائة وخمسين جنيها ..

والفرح يستمر سبعة أيام . أيام عديدة . يوم الرمى . والحنة والزفة . والتصندير . والسبوع .

ولا مراعاة هنا لفارق السن ..

فتيات صغيرات فوجئن ليلة الزفاف بأنهن تزوجن من رجال يكبرهن بربع وربما نصف قرن ..

والنتيجة الطبيعية .. هى . الطلاق .

المصاهرة .. تتم بين العائلات .. فهل يمكن أن ينجح زواج يقوم على هذا الأساس ؟ .

* * *

الطلاق فى طرابلس ١٠٪ فقط وتعدد الزوجات ..
آخر احصاء يقول ان فى كل ألف رجل متزوج ٣٢ رجل له أكثر من زوجة واحدة !!!

اعتقد أنها نسبة تحتاج الى وقفة طويلة .. ليس سببها فقط اسلوب الزواج داخل مجتمع مفتوح فى كل شىء ، مغلق بالنسبة للمرأة . فان هناك مشكلة أخرى أعمق .. هى اختلاف المستوى الثقافى بين الشاب . والفتاة المحجبة ! ..

***

ما اذا كانت نتيجة ذلك ؟

الاحصاء يقول ان فى ليبيا ٥٢٤٫٤٣٩ امرأة . وأن ٣٢٫٩٪ من الرجال فوق ١٥ سنة غير متزوجين ! .

الشباب .. والرجال .. وحتى البنات .. الكل يجمعون على أن هناك أزمة زواج ..

والسؤال هو :

ماهو سر هذه الأزمة . من وجهة نظر الفتاة الليبية ؟

مجلة طرابلس الغرب أجرت استفتاء قالت فيه الآنسة « ز . ز » ان السر هو الصورة المرتسمة فى أذهان الشباب عن الفتاة الليبية .. وكيف أنه تنقصها الخبرة والفهم .. وهذا يرجع الى التمثيليات الاذاعية التى تشوه فكرة الشباب عن المرأة بصفة عامة ..

والسبب الثانى هو الحرمان العاطفى الذى يعيش فيه شبابنا وعدم الاختلاط الذى جعل الفتاة عندهم شيئا غامضا ..

فضلا عن التضارب بين المستوى الفكرى والواقع العملى الذى تغذيه التقاليد الرجعية ..

والآنسة زهيرة الشريف قالت أن سبب فشل الزيجات وانهيار البيوت وتفكك الأسر وانحلالها هو عدم الاختيار .. والعلاج هو رفع الحواجز التى تنصب فخاخا باسم الأخلاق والعفة وبقية المترادفات . والآنسة ب.ب تذهب الى أبعد من ذلك .. فترى أن السبب هو انعدام الحب .. الذى يكاد يكون ضروريا لاستمرار الحياة الزوجية .. ثم تضارب العقليات !!

لقد استورد الشباب زوجات من الخارج . الشاب يسافر .. ليتزوج وزوجات كثيرات أجنبيات تسللن الى البيوت العربية فى ليبيا ..

قالت لى فتحية مازق أنه خلال ستة شهور فقط تم فى بنغازى زواج ٢٥٠ شاب على فتيات أجنبيات . هذا ماعدا الذين يتزوجون من مصر .

فمصر بالنسبة لنا ليست بلدا أجنبيا ولكننا نتكلم عن الأوربيات اللواتى دخلن بيوتنا .

ومع ذلك فان أكثر ماتصدره مصر الى ليبيا هى الزوجات ،

وقد سمعت أن فى الاسكندرية خاطبة متخصصة يحضر الشاب الليبى لمدة اسبوع فى الصيف الى الاسكندرية يعود بعدها ، ومعه عروسة مصرية .. وليس هناك عيب فى الزواج بمصريات فهن عربيات لا خوف منهن على أولادنا وأطفالنا ، ولكن المشكلة تظل مشكلة بوار الفتاة الليبية

ان الشاب يستطيع أن يخرج ويختار .. ويتزوج بتكاليف رخيصة ولقد أصبحت مشكلة المرأة هنا هى المنافسة غير المتكافئة بين البنت العربية المحجبة .. المحدودة التفكير . والثقافة .. وبين الفتاة الأوربية السافرة الواعية .

والمرأة لاتستطيع أن تواجه هذا التيار .. ان المتعلمين هم الذين يحسون به .. كتبت جريدة برقة تنبه الى خطورة هذا الاتجاه وتدعو الى الوقوف فى وجهه .. وقالت ان علينا أن نعلم أن البنت ليست سلعة .. وأن عقد القران ليس صفقة تجارية تتغالى فى المهور .. فالزواج من الأجنبيات يحمل فى طياته أخطارا على بنات الوطن .. ضحايا الآباء والتقاليد .. حيث يصبحن عوانس بمرور الوقت .. فى انتظار الرجل .. الذى لن يأتى !

أين تقف الهيئات النسائية من ذلك كله ..

فى ليبيا جمعية نسائية واحدة هى جمعية النهضة .. لها فرعين فى طرابلس وبنغازى .. وأهدافها قائمة طويلة من البنود كلها للنهوض بالمرأة ورفع مستواها .

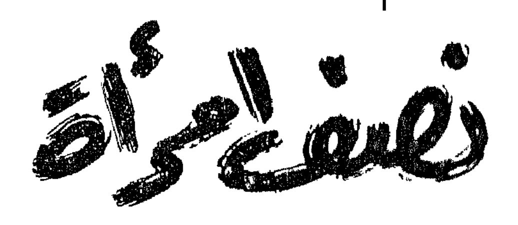
جمعية النهضة ببنغازى مثلا تضم مائة امرأة . وتكونت داخل الجمعيه لجان عديدة . ولكن المشكلة كما قالت جريدة برقه هنا مشكلة الرجل ، « فاذا كنا لا نسمح للمرأة بزيارة الطبيب .. فكيف نطلب نشاطا نسائيا قويا » اننا نحول دون خروج المرأة لزيارة أهلها .. فهل نسمح لها بالانضمام الى الجمعية النسائية ؟ ..

والحقيقة ان الحجاب فى بنغازى أخف منه فى طرابلس .. بالرغم من أن طرابلس أكبر مدنية وحضارة .. ومن الغريب أن الفتيات الأجنبيات السافرات اللواتى يجبن شوارع طرابلس محرم على الشباب الوطنى الحديث معهن .. ان أى اعتراض لطريق فتاة أجنبية . جريمة عقوبتها الحبس .. هكذا يقول القانون ..

بالرغم من ذلك كله .. فهناك صورة الجديد اقتحمت الفتاة الليبية الجامعة ففى جامعة ليبيا وجدت ١٥ فتاة يجلسن سافرات مع الطلاب وعندما يخرجن يضعن الحجاب .. ولقد تخرجت فى ليبيا ٣ طبيبات (١) .. وهناك عشر فتيات يدرسن فى الخارج .. ولكن القوى التى تعترض طريق السفور قوية جدا . انها تحطم كل محاولة اصلاحية لخروج المرأة من عزلتها .. ومشاركتها الجادة فى الحياة الجديدة التى تعيشها ليبيا بعد الاستقلال .

---

(١) هذه الارقام كانت حتى سنة ١٩٦٢ .



اعصابهن من حديد .. هؤلاء البنات ..

الجـــدران التى يعشن خلفها ، لم تخلف فى نفوسهن سوى المرارة .. مرارة الحرمان ! ..

ان حـولهن بنات .. بنات غريبات فى مثل عمرهن .. يعملن ، ويلعبن ويجـرين ، يركبن الدراجات ويقدن السيارات ، ويتحـدثن مع الرجال ، ويشترين لانفسهن كل ما يطمعن فيه !.

وهؤلاء البنات .. صاحبات البلد ، ليس لهن الحق فى شىء من ذلك كله ! ..

بل ان حقهن الطبيعى فى الزواج .. دخلت لهن فيه منافسات من الخارج أيضا !

المرأة الليبيـــة لا تخرج من بيتها الا لسبب هام وحيوى وهذا يلقى بالعبء على الرجل ..

هو الذى يشترى كل شيء .. ومنظر طبيعى جدا أن ترى رجلا ــ مهما كان مركزه ــ يحمل الخضار والخبز وحاجيات البيت .. لأن المرأة لا تخرج ..

وحتى ملابس المرأة فان الرجل فى معظم الأحيان هو الذى يشتريها ، ويفرض عليها ذوقه ، واختياره .. صحيح أن عددا قليلا من السيدات يذهبن الى المحلات التجارية ليشترين ملابسهن ، ولكن .. الغالبية لا تفعل ذلك ..

المرأة نفسها لا ترى فى ذلك عيبا .. لأنها لم تتعوده .. فلم تألف أن تقف أمام البائع تساومه ، وتشترى منه .. ومعظم المبيعات فى ليبيا تتم عن طريق المساومة ! ..

لقد نجحت الأسوار العالية أن تفصل المرأة عن الحياة تماما ، بحجة أن مملكة المرأة الوحيدة هى البيت ، وأن المرأة فى بيتهـا تؤدى للمجتمع وللأسرة خدمات جليلة .. وكلام كثير .. يمكن أن يقال فى هذا الشأن .. انه نفس الكلام الذى كان يقـال فى مصر قبل أن يصرخ قاسم أمين صرخته التى مهدت لهـزة شاملة فى المجتمع ..

ومن الغريب انني سمعت فى ليبيا من النساء القليلات اللواتى التقيت بهن صوتا هامسا يقول « اننا هنا فى حاجة الى قاسم أمين » وأنه حتى المتحمسون من الرجال الذين ينادون بخروج المرأة ، وسفورها .. هؤلاء القلة خائفون .. من الناس .. أنهم يطالبون بسفور المرأة على صفحات الصحف .. بينما اخواتهم ، وزوجاتهم يعشن وراء حجاب كثيف ! ..

وحجاب المرأة هنا ليس فى الزى وحده .. ولكنه حجاب شامل .. عن الحياة كلها .. بما فيها .. ومن فيها .. ان جدارا سميكا يفصلها عن كل شىء ! ..

والمرأة دخلت المدرسة ، والجامعة .. ولكن سوف تظل الى سنوات طويلة نسبة المتعلمات منخفضة جدا ، وسوف تظل النساء اللواتى يعشن داخل الجدران الأربعة — أنصاف نساء — بعيدات عن نور العلم .. ليس فقط لأن الاستعمار الايطالى فرض عليهن ذلك ، بعنف ، ولكن أيضا لأن قوى كثيرة كانت تعترض طريقها .. وفى مقدمتها .. العادات ، والتقاليد .. عادات المجتمع المتزمت ، وتقاليده ! ..

وقنعت المرأة بأن يكون مكانها البيت وأن تظل نصف امرأة تؤدى نصف المهمة التى تقوم بها المرأة اليوم فى كل المجتمعات حتى نبتت دعوات جديدة ، تنادى بتطور المجتمع ، وجاء مفكرون اجتماعيون ينبهون الى الخطر الذى يهدد المرأة ، بعد أن أضرب

الشباب عن الزواج واتجه الى الخارج يتزوج من أوروبيات ، وبدأت القلة القليلة من النساء تتحرك لمحاولة مواجهة هذا التيار الذى قد ينمو ، ويكبر ، ويأتى معه بنتائج اجتماعية خطيرة !

ان عادات كثيرة تغيرت ، وتقاليد عديدة فقدت تأثيرها .. مثلا ..

كانت المرأة فى مناطق كثيرة من ليبيا « توشم » ابتداء من أسفل شفتها حتى حافة الذقن بخطين تقطعهما خطوط صغيرة حتى يبدو وشمها كأنه سلم خشبى .. وانقرض هذا التقليد فى المدينة .

كانت المرأة لابد أن يوضع فى وسطها حزام ذهبى .. أو مذهب عريض .. وللحزام الذهبى قصة طويلة ، فقد بدأت النساء تستعمله فى العصر اليونانى — وكان ارتداء الحزام الذهبى دليلا على عفة المرأة وشرفها — ومن اليونان انتقلت العادة الى بلدان كثيرة .. وانقرضت .. وانقرضت .. من ليبيا أيضا ! ..

كان العرس يستمر خمسة عشر يوما .. أو يتجاوزها وانقرض التقليد من المدينة ، وأصبح يبدأ يوم الاثنين عندما تطوف نساء سوداوات على البيوت تدعو السكان لحضور حفل الزفاف ، ويتقاضين أجرهن من هذه البيوت .

كان العريس محظورا عليه أن يقابل أحد والديه من أول أسبوع العرس .. وبعد أسبوع من زواجه يحضر والداه ، ويقبل يداهما معترفا بالجميل ! .. ولكن هذه العادة بدأت تنقرض !

كانت العروس لا تخرج من بيتها الا بعد عام .. وآول بيت تزوره هو بيت أهلها حيث تذهب اليه محملة بالهدايا ..

و . . .

وعادات كثيرة تلاشت .. وتقاليد كثيرة انتهت وحلت مكانها تقاليد أخرى أكثر تطورا مع الحياة العصرية السريعة التى يعيشها المجتمع الحديث ..

ولكن الحجاب لم يتلاش .. ان فتيات خلعن الحجاب . . ثم تحت ضغط الناس .. والعــائلة عاد الحجاب الى وجوههن مرة أخرى ! ..

ولا أعرف بالضبط ما هو الشعور الذى تحسه المرأة ، وهى تسير فى الشارع ، وتجد حولها الحياة تموح .. البنات يركبن الدراجات ، ويقدن السيارات ، ويلبسن البنطلونات .. ويتابطن ذراع الشباب .. ويعملن بائعات فى المحلات .. ويحترفن شتى المهن والحــرف .. لا أعرف شــعور البنت الليبيــة بالضبط ، ولا مدى تأثير هذا الذى تراه يعيش معها .. وربما فى نفس العمارة التى تسكن فيها وفى الشــقة المجاورة لها .. هل يؤثر ذلك على نفسيتها .. والى أى مدى .

***

الأمل الذى تعيش عليــه البنت هــو الزواج .. وعنــدما

تتزوج فمن المفروض أن تبدأ حياة جديدة .. ولكن ذلك لا يحدث أيضـــا . .

قال لى صديق ليبى فى طرابلس انه يخاف أن يذهب مع زوجته الى السينما .. يخاف عيون الناس وكلامهم رغم أن زوجته محجبه، وانها لو ذهبت معه الى السينما ، فانها ستذهب محجبة أيضا ! .

وعدد من الشباب كان سعيدا جدا بمعرض طرابلس الدولى عندما أقيم لأول مرة .. لانه قد جذب اليه المرأة التى تعيش وراء الأســوار .. فخرجت محجبة .. لتذهب الى المعرض .. لترى أحدث معروضات العالم .. وذهبت اليه رحــلات من مدارس البنات .. والبنات محجبات طبعا ! ..

والحب ..

هل له مكان فى دنيا المرأة المحجبة .

انه يعيش هنا فى الظلام . ويتنفس بصعوبة .. لأن قوى تجثم عليه أيضا ولا تتركه يخرج الى النور ..

الحب فى البادية صورته عادية جدا ، تماما كما نســمع عن الحب الذى عاش فى البــادية العربيــة والذى سجلته قصص كثيرة ، وقصائد طويلة . . وتناقلته .. الألسنة فى اعتزاز وفخر

هذا الحب يعيش الآن ـــ مع البدو ـــ فى صحارى ليبيا ، كما هو ... يشعره بأهازيجه ، بقدسيته وجلاله ...

وفى المدينة تختلف الصورة تماما ، أن أى حب هنا يتم بتكتم شديد . كما لو كان سرا حربيا يمكن أن يدمر العالم .

والناس يخافون من كلمة الحب خشية سخرية المجتمع ، وقد يكون هنا حب وعشاق كثيرون لا يحس بهم أحد ، وقد يكون هنا حب أكثر من طرف واحد .. وقد يعيش المحب مرحا سعيدا بين أفراد العائلة الواحدة ، والأقارب .. ولكن حتى هذه تتم فى السر دون أن يعرفها .. أو يحس بها انسان .

الشباب .. أين يقف من المرأة ؟! .

ان المثقفين ، والذين سافروا الى الخارج ، عادوا بأفكار جديدة عن المرأة والحب والزواج .. هذه الأفكار لا ترضى النزعة القديمة التى تعيش فى عقول آبائنا وأجدادنا ، والنتيجة الطبيعية لذلك هى الصراع الدائم بين القديم والجديد ! .

الآباء يستغلون أبوتهم .. بما فيها من روابط أسرية ، وعواطف ، وقدسية وقوامة .. ولقد خضع الكثيرون لهذا الأسلوب ، واضطروا تحت الضغط أن يتزوجوا بفتيات لم يروهن الا ساعة الزفاف ، وهم غير مؤمنين بطريقة الزواج .. وغير راضين عن زوجاتهم . !

وتمرد نفر من الشباب ، وأضرب عن الزواج ، وراح يثير

سخريات من وضع المرأة ، ويتصور الزواج على انه مغامرة شاقة .. نتيجتها الفشل ..

لقد قال لى شـاب ليبى انه يفكر دائما كيف يمكن أن يخلق حب بعد الزواج .. وكيف يمكن أن تعيش آلاف الأسر فى ليبيا سعيدة بالطريقة الخاطئة التى تم بها الزواج !

وقلت : لقد وجدنا كلنا فى الشرق العربى نتيجة لمثل هـذا الزواج ، فالكثيرون لا يفكرون فى طريقة الزواج .. كما نفكر نحن الآن . ولذلك فان حياتنا الاجتماعية تظل معقدة !

لقد رأيت فى ليبيا شبابا كثيرين يتساءلون كيف يمكن أن يتزوجوا بامرأة لا يعرفونها .. يرونها لأول مرة ليلة الدخلة . . ولكنى لم أر شابا واحدا ـ ولا امرأة واحدة تتساءل كيف يمكن أن تتزوج فتاة من شاب لم تره الا ليلة الدخلة . !

ان معظم الذين يدافعون عن حرية المرأة فى ليبيا وخروجها ، ويناصرون قضيتها ، انما هم فى الواقع يدافعون عن حرية الرجل ، ويطلبون له بمزيد من الحقوق على حساب قضية واسعة عامة هى قضية حرية المرأة .

ورأيى أن هناك قضيتين منفصلتين تماما ، وان كانت احداهما نتيجة للأخرى .. هما قضية العادات والتقاليد وقضية الحجاب !

ومشاكل الحجاب ليست فقط فى الحب .. وليست فى الزواج وأسسه ، ولا فى الطريقة التى تبنى عليها بيوتنا ، ولا حتى فى كيفية تسلل أجنبيات اليها .. انها أيضا أعمق من ذلك كله ..

والحب .. والزواج .. وخروج المرأة .. مسائل لا تثير الا الشباب .. فهم الذين يتحمسون لها ، ويدافعون عنها .

ولكن المشكلة أخطر من ذلك كله .. انها مشكلة مجتمع نصفه مبتور ، غير قادر على العمل ، ولا الانتاج .. مجتمع نصف طاقاته معطلة فى الوقت الذى يخطط فيه العالم مشروعات للتنمية ، ويحاول أن يقفز قفزة واسعة فى شتى الميادين ولنترك بعثة البنك الدولى تتكلم .. انها تقول فى تقريرها :

« ان مركز المرأة فى المجتمع له تأثير هام على التنمية الاقتصادية .. فلو سمح للمرأة بالعمل خارج بيتها لزاد عدد الأيدى العاملة ، وتضاعفت فرص العمل . مما يؤدى الى زيادة الانتاج ورفع مستوى جودته ، وفى الوقت نفسه فان ما تحصل عليه المرأة من مال يقوى الطلب ويساعد على توسيع السوق بالنسبة للبضائع الاستهلاكية ! ومن أخطر العقبات التى تعترض سبيل التنمية الاقتصادية والاجتماعية .. فى ليبيا صعوبة ايجاد

الأشخاص الصالحين لملء وظائف هذا النوع الذى تشغله المرأة فى معظم البلدان كالممرضات والمدرسات .. والمختزلات .. وقد وجدت البعثة أن هناك عددا كبيرا من الليبيين الراغبين فى قيام المرأة بدور بارز فى حياة البلاد ، ومجرد فتح عدد من المدارس الثانوية للبنات هو فى حد ذاته دليل على أن النظرة الى هـذه المسألة اخذت تتطور .

وهناك مشاكل آخرى للمرأة .

ليبيا مثلا تعانى من نقص السكان ، انها تزداد بنسبة ١٫٢٥٪ كل سنة وهو رقم ضئيل اذا قورن بالمغرب ٣٪ وتونس ٢٫٥٪ والأردن ٣٪ والمواليد فى ليبيا يزيدون على هذه النسبة ، ولكن الوفيات كثيرة أيضا .. وهذا راجع — كما قررت البعثة الدولية — الى جهل الأمهات .. ولابد من تعليمهن أصـول التغـذية ، ومبادىء الصحة العامة ، والعناية بهن !! ولابد من عدد وفير من الطبيبات .. ومراكز العناية بالأمهات .. والحـل .. هو وجود طبيبات وممرضات وزائرات صحيات .. وتقوم بهذه الأعمال الآن اجنبيات .. فالتمريض تقوم به راهبات ايطاليات .. وتقول البعثة انه بالرغم من أن بالبلاد ثلاثة معـاهد لتدريب النسـاء على التمريض الا أن اقبال النساء على هذه المعاهد ليس مشجعا نتيجة

لعزلة النساء .. وللموقف التقليدى الذى تتخذه الطبقة المتوسطة من استخدام المرأة .

* * *

التقاليـد قد تكون مسئوله .. عن الحجـاب .. ولكنهـا ليست وحدها .

هناك عدة عوامل تغذيها .. من بينها رجال الدين .

فرجال الدين يشنون حملات شعواء على « آدعياء السفور » ولا أعرف السبب الحقيقى لذلك .. ولا المصلحة التى يدعو اليها رجال الدين .. انه ليس الدين نفسه ، والا لأصدر رجال الدين احكامهم بكفر المرأة المسلمة فى مختلف البلاد الاسلامية .

رجال الدين يستطيعون الاعتراض على الابتـذال . . على البعد عن الدين ، على الانحلال ، أشياء كثيرة يمكن أن يدافعوا ويقفوا ضدها ، ولكن وقوفهم فى وجه تقدم المرأة مسألة تحتاج الى تفكير ..

والحل ..

الحل فى رأيى أن القيادة أكثر تقدما ، وأوسع أفقا .. ولذلك فانها يجب أن تنزل المعركة لتنفضها .. يجب أن تشجع الحكومة على السفور ، وتدعو له لا فى مختلف أجهزة الاعلام ، بل دعوة

عملية .. لتساعد على سفور طالبات المدارس .. فتطلب أن يكن سافرات .. لتساعد على نمو الوعى .. لتنشر الدعوة الجـديدة لتفسح مكانا للمرأة المتعلمة فى كل وظيفة داخـل الدولة ، لتمنح الفتيات من التشجيع ما يجعلهن يجرين وراء التعليم والوظيفة !

ان فى ليبيا مذيعات فى الاذاعة ولكن ليس فيها موظفات فى الحكومة ، ومن واجب الحكومة أن تخلق هؤلاء الموظفات حتى يسير الركب . !

وأخيرا ..

لقد كنت أريد الحديث عن عادات الزواج ، وتقاليده ، لباس المرأة ، والكسكسى الوجبة الشعبية الأولى فى ليبيـــا .. ولكنى وجدت أن الأسوار العالية التى تعيش خلفها المرأة أهم ..

ان ليبيا تتنفس برئة واحدة .. والرئة الثانية معطلة .. والمرأة الأجنبية اقتحمت بيوتنا .. وأصبحت أما لأولادنا .. ونحن نغط فى نوم عميق .. ونناقش : هل حرام أن تخرج المرأة سافرة أم لا .. ولم نناقش هل حـــرام أن تكون الأجنبيـــة أم لأولادنا .. وأن تسيطر على بيوتنا أم أنه حلال .

ان الزمن حسم هذه ـــــــ فى بلاد كثيرة .. وواجبنا هو تحطيم الأسوار من الآن .. قبل أن يحطمها الزمن .. ويحطمنا معها ! ..

هذا الكتاب يجيب على سؤال هام يتردد على لسان كل مواطن فى العالم هو :

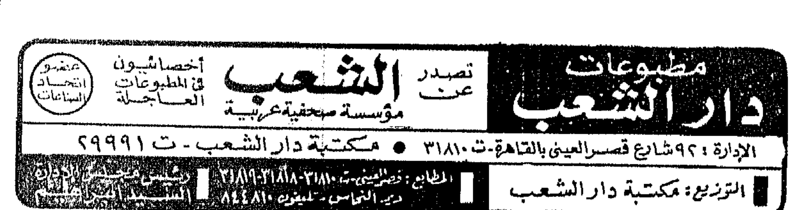
لماذا قامت الثورة فى ليبيا .

انه يعكس الواقع الاقتصادى ، والسياسى ، والاجتماعى الذى كانت تعيشه أحدث جمهورية تدخل الصف العربى المتحرر ..

ولقد سبق أن نشرت فصول هذا الكتاب منذ ثلاث سنوات فأحدثت ضجة ، وصودرت مجلة روزاليوسف التى نشرته ، ومنعت من دخول ليبيا ، وفى نفس الوقت شكلت الحكومة الليبية لجنة للرد على ما جاء فى المجلة من حقائق ، تعكس الحياة فى ولايات ليبيا الثلاث .

وكانت ليبيا ٣ ولايات ، ٣ اتجاهات و ٣ مناطق نفوذ ٣٠٠ صحف رسمية .. متقاربة .. متباعدة .. ولكن ما يدور داخل البلاد .. كان شيئا مثيرا للغاية ..

وهكذا الكتاب هو تجميع للحياة .. فى ليبيا ..



مطبوعات دار الشعب
تصدر عن الشعب مؤسسة صحفية عربية
أخصائيون فى المطبوعات العاجلة
عضو اتحاد الصناعات
الإدارة : ٩٢ شارع قصر العينى بالقاهرة - ت ٣١٨١٠ ● مكتبة دار الشعب - ت ٢٩٩٩١
التوزيع : مكتبة دار الشعب

١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م